

# الكبائر والصغائر

للعامة الكير

المستيد محمد حسين الطباطبائي

مفتي الميراث

الشيخ محمد الطباطبائي

مؤسسة الأمل للطبوعات



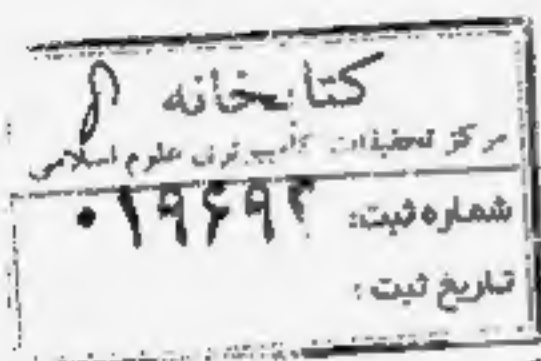
مرکز تحقیقات و اسناد ملی

الکتاب والصغار



مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی

# الكبائر والصغائر



للمتألمة الكبير  
السيد محمد حسين الطباطبائي  
صاحب تفسير الميزان

جمع وتحقيق  
الشيخ قاسم الهاشمي

منشورات  
مؤسسة الأمل للطبوعات  
بيروت - لبنان  
ص ١٢٠

الطبعة الأولى  
جميع الحقوق محفوظة للناسـخ  
مركز البحوث والدراسات  
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

مؤسسة الأعلـمي للمطبوعات

Published by Alaalami Library

Beirut- Lebanon po. Box 7120

Tel - Fax: 450427

E-mail: alaalami@yahoo.com.



بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة

مفرق سنتر زعرور - ص ب : ١١/٧١٢٠

هاتف: ٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

## المقدمة

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلقه وأشرف بريته أبي القاسم محمد وعلى آله الطاهرين.

إن أفضل مسلك لدراسة وبحث الأخلاق الإسلامية هو المسلك القرآني وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل وبعبارة أخرى إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع وذلك كما أن كل فعل يراد به غير الله سبحانه فالغاية المطلوبة منه إما عزة في المطلوب يطمع فيها أو قوة يحاف منها ويحذر عنها لكن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الْمَرْءَ لَشَفِيفٌ﴾ أي لا يقدر على أن يرفع نفسه فوق الله القوة لله جميعاً فهاتان القضيتان إذا صارتا معلومتين للإنسان تغسلان كل ذميمة وصفاً أو فعلاً عن الإنسان وتحليان نفسه بحلية ما يقابلها من الصفات الكريمة الإلهية، وهذه التربية الإلهية لا تشابه نوع التربية التي يقصدها الحكيم الأخلاقي في فنه، ولا معنى التربية التي سنّها الأنبياء في شرائعهم وإنما نبنتي على التوحيد الخالص لله تعالى.

لذلك نجد أن العلامة انطلق في بحوثه الأخلاقية من القرآن الكريم واستنطق الآيات بعضها للبعض الآخر في شرح المقاصد الأخلاقية فمثلاً عندما يتناول موضوع الذكر الإلهي عند مروره بالآية (١٥٢) من سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿اذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ يؤكد على ثلاث مراحل:

الأولى: بيان حقيقة الذكر الإلهي ودعوة الموحدين لذكره وشكره ويستدل بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا قَسَمْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ

مِنْ هَذَا رَشْدًا<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ<sup>(٢)</sup>﴾.

الثانية: فلسفة الذكر والنهي عن طاعة الغافلين عن ذكر الله تعالى واستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾.

الثالثة: مراتب وأقسام الذكر واستدل العلامة في تقسيمه للذكر الإلهي بهذه الآيات الثلاث:

١ - قوله تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ أَنَّ اللَّهَ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ<sup>(٣)</sup>﴾، أراد به (ذكر الطمأنينة).

٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ<sup>(٤)</sup>﴾، أراد به (ذكر التضرع والخيفة).

٣ - قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا<sup>(٥)</sup>﴾، أراد به (الذكر المثلي).

يُعتبر هنا المنهج القرآني في تهذيب وتربية الإنسان من أفضل الطرق والمسالك الأخلاقية لما فيه من التأكيد على جانب الرب دون العبد وعلى الحب الإلهي، ونحن إذ نشكر الله على توفيقه لنا وتسديده إيانا نقدم (لقرائنا الأعزاء) هذا المجلد تحت عنوان (الأخلاق الإسلامية) والله نسأل أن يتقبل منا هذا القليل ويعفو عنا الكثير وهو ولي التوفيق.

(١) سورة الكهف: ٢٤.

(٢) سورة مريم: ٧.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

(٤) سورة الأعراف: ٢٠٥.

(٥) سورة البقرة: ٢٠٠.

## المبحث الأول

### الأخلاق في القرآن الكريم

اعلم أن إصلاح أخلاق النفس وملكاتها في جانبي العلم والعمل، واكتساب الأخلاق الفاضلة، وإزالة الأخلاق الرذيلة إنما هو بتكرار الأعمال الصالحة المناسبة لها ومزاولتها، والمداومة عليها، حتى تثبت في النفس من الموارد الجزئية علومٌ جزئية، وتتراكم وتنشأ في النفس انتقاشاً متعذر الزوال أو متعسره، مثلاً إذا أراد الإنسان إزالة صفة الجبن واقتناء ملكة الشجاعة كان عليه أن يكرر الورود في الشدائد والمهاول التي تزلزل القلوب وتقلقل الأحشاء، وكلما ورد في مورد منها وشاهد أنه كان يمكنه الورود فيه وأدرك لذة الإقدام وشناعة القرار والتحذر انتقشت نفسه بذلك انتقاشاً بعد انتقاش حتى تثبت فيها ملكة الشجاعة، وحصول هذه الملكة العلمية وإن لم يكن في نفسه بالاختيار لكنه بالمقدمات الموصلة إليه كما عرفت اختياري كسبي.

إذا عرفت ما ذكرناه علمت أن الطريق إلى تهذيب الأخلاق واكتساب الفاضل منها أحد مسلكين:

**المسلك الأول:** تهذيبها بالغايات الصالحة الدنيوية، والعلوم والآراء المحمودة عند الناس كما يقال: إن العفة وقناعة الإنسان بما عنده والكف عما عند الناس توجب العزة والعظمة في أعين الناس والجاه عند العامة، وإن الشره يوجب الخصاصة والفقر، وإن الطمع يوجب ذلة النفس المنيعه، وإن العلم يوجب إقبال العامة والعزة والوجاهة والأنس عند الخاصة، وإن العلم بصرف يتقي به الإنسان كل مكروه ويدرك كل محبوب، وإن الجهل



عمى، وإن العلم يحفظك وأنت تحفظ المال، وإن الشجاعة ثبات يمنع النفس عن التلون والحمد من الناس على أي تقدير سواء غلب الإنسان أو غلب عليه بخلاف الجبن والتهور، وإن العدالة راحة النفس عن الهمم المؤذية، وهي الحياة بعد الموت ببقاء الاسم وحسن الذكر وجميل الشاء والمحبة في القلوب.

وهذا هو المسلك المعهود الذي رتب عليه علم الأخلاق والمأثور من بحث الأقدمين من يونان وغيرهم فيه.

**المسلك الثاني:** الغايات الأخروية، وقد كثر ذكرها في كلامه تعالى كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثَرِ لَهُمُ الْجَنَّةِ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ مَتَّعُوا اللَّهُ لِقَافَهُمْ فِي مَقَامٍ فَتْنَةٍ﴾<sup>(٤)</sup>، وأمثالها كثيرة على اختلاف فنونها.

ويلحق بهذا القسم نوع آخر من الآيات كقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإن الآية دعت إلى ترك الأسى والفرح بأن الذي أصابكم ما كان ليخطئكم وما أخطاكم ما كان ليصيبكم لاستناد الحوادث إلى قضاء مقضي وقدر مقدر، فالأسى والفرح لغو لا ينبغي صدوره من مؤمن يؤمن بالله الذي بيده أزيمة الأمور كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ فهذا القسم من الآيات أيضاً نظير القسم السابق الذي يتسبب فيه إلى إصلاح الأخلاق بالغايات الشريفة الأخروية، وهي كمالات حقيقية غير ظنية يتسبب فيه إلى إصلاح الأخلاق بالعبادىء السابقة الحقيقية من القدر والقضاء والتخلق بأخلاق الله والتذكر

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة الزمر: ١٠.

(٣) سورة إبراهيم: ٢٢.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٧.

بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا ونحو ذلك.

فلان قلت: التسبب بمثل القضاء والقدر يوجب بطلان أحكام هذه النشأة الاختيارية، وفي ذلك بطلان الأخلاق الفاضلة، واختلال نظام هذه النشأة الطبيعية، فإنه لو جاز الاستناد في إصلاح صفة الصبر والثبات وترك الفرح والأسى كما استفيد من الآية السابقة إلى كون الحوادث مكتوبة في لوح محفوظ، ومقضية بقضاء محتوم أمكن الاستناد إلى ذلك في ترك طلب الرزق، وكسب كل كمال مطلوب، والانقضاء عن كل رذيلة خلقية وغير ذلك، فيجوز حينئذ أن نقعد عن طلب الرزق، والدفع عن الحق ونحو ذلك بأن الذي سيقع منه مقضي مكتوب، وكذا يجوز أن نترك السعي في كسب كل كمال، وترك كل نقص بالاستناد إلى حتم القضاء وحقيقة الكتاب، وفي ذلك بطلان كل كمال.

قلت: إن الأفعال الإنسانية من أجزاء علل الحوادث، ومن المعلوم أن المعاليل والمسببات يتوقف وجودها على وجود أسبابها وأجزاء أسبابها، فقول القائل: إن الشيع إما مقضي الوجود، وإما مقضي العدم، وعلى كل حال فلا تأثير للأكل غلط فاحش، فإن الشيع فرض تحققه في الخارج لا يستقيم إلا بعد فرض تحقق الأكل الاختياري الذي هو أحد أجزاء علله، فمن الخطأ أن يفرض الإنسان معلولاً من المعاليل، ثم يحكم بإلغاء علله أو شيء من أجزاء علله.

فغير جائز أن يبطل الإنسان حكم الاختيار الذي عليه مدار حياته الدنيوية، وإليه تنتسب سعادته وشقاؤه، وهو أحد أجزاء علل الحوادث التي تلحق وجوده من أفعاله أو الأحوال والملكات الحاصلة من أفعاله، غير أنه كما لا يجوز له إخراج إرادته واختياره من زمرة العلل، وإبطال حكمه في التأثير، كذلك لا يجوز له أن يحكم بكون اختياره سبباً وحيداً، وعلة تامة إليه تستند الحوادث، من غير أن يشاركه شيء آخر من أجزاء العالم والعلل الموجودة فيه التي في رأسها الإرادة الإلهية فإنه يتفرع عليه كثير من الصفات المذمومة كالعجب والكبر والبخل، والفرح والأسى، والغم ونحو ذلك.

يقول الجاهل: أنا الذي فعلت كذا وتركت كذا فيعجب بنفسه أو يستكبر على غيره أو ييخل بماله - وهو جاهل بأن بقية الأسباب الخارجة عن

اختياره الناقص، وهي ألوف وألوف لو لم يمهد له الأمر لم يسد اختياره شيئاً، ولا أغنى عن شيء - يقول الجاهل: لو أني فعلت كذا لما تضررت بكذا، أو لما فات عني كذا، وهو جاهل بأن هذا الفوت أو الموت يستند عدمه - أعني الربح أو العافية، أو الحياة - إلى ألوف وألوف من العلل يكفي في انعدامها - أعني في تحقق الفوات أو الموت - انعدام واحد منها، وإن كان اختياره موجوداً، على أن نفس اختيار الإنسان مستند إلى علة كثيرة خارجة عن اختيار الإنسان فالاختيار لا يكون بالاختيار.

فإذا عرفت ما ذكرنا وهو حقيقة قرآنية يعطيها التعليم الإلهي كما مر، ثم تدبرت في الآيات الشريفة التي في البحث وجدت أن القرآن يستند إلى القضاء المحتوم والكتاب المحفوظ في إصلاح بعض الأخلاق دون بعض.

فما كان من الأفعال أو الأحوال والملكات يوجب استنادها إلى القضاء والقدر إبطال حكم الاختيار فإن القرآن لا يستند إليه، بل يدفعه كل الدفع كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا قَبِلُوا فِتْنَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَبَاهِئًا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ<sup>(١)</sup>﴾.

وما كان منها يوجب استنادها إلى القضاء إثبات استقلال اختيار الإنسان في التأثير، وكونه سبباً تاماً غير محتاج في التأثير، ومستغنياً عن غيره، فإنه بثبت استناده إلى القضاء ويهدي الإنسان إلى مستقيم الصراط الذي لا يخطيء بسالكة، حتى ينتهي عنه ردائل الصفات التي تتبعه كإسناد الحوادث إلى القضاء كي لا يفرح الإنسان بما وجده جهلاً، ولا يحزن بما فقدته جهلاً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي مَاتَكُمْ<sup>(٢)</sup>﴾، فإنه يدعو إلى الجود بإسناد المال إلى إيتاء الله تعالى، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْتُونَ<sup>(٣)</sup>﴾، فإنه يندب إلى الإنفاق بالاستناد إلى أنه من رزق الله تعالى، وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ النَّفْسَ الَّتِي نَفَسَكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لَنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ

(١) سورة الأعراف: ٢٨.

(٢) سورة النور: ٣٣.

(٣) سورة البقرة: ٣.

أَحْسَنُ عَمَلًا<sup>(١)</sup>، نهى رسول الله ﷺ عن الحزن والغم استناداً إلى أن كفرهم ليس غلبة منهم على الله سبحانه بل ما على الأرض من شيء أمور مجعولة عليها للابتلاء والامتحان إلى غير ذلك.

وهذا المسلك أعني الطريقة الثانية في إصلاح الأخلاق طريقة الأنبياء، ومنه شيء كثير في القرآن، وفيما ينقل إلينا من الكتب السماوية.

وههنا مسلك ثالث: مخصوص بالقرآن الكريم لا يوجد في شيء مما نقل إلينا من الكتب السماوية، وتعاليم الأنبياء الماضين سلام الله عليهم أجمعين، ولا في المعارف الماثورة من الحكماء الإلهيين، وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل، وبعبارة أخرى إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع.

وذلك كما أن كل فعل يراد به غير الله سبحانه فالغاية المطلوبة منه إما عزة في المطلوب يطمع فيها، أو قوة يخاف منها ويحذر عنها، لكن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الْوَسْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾<sup>(٢)</sup> ويقول: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾<sup>(٣)</sup>، والتحقق بهذا العلم الحق لا يبقى موضوعاً لرياء، ولا سمعة، ولا خوف من غير الله، ولا رجاء لغيره، ولا ركون إلى غيره، فهاتان القضيتان إذا صارتا معلومتين للإنسان تغسلان كل ذميمة أو صفة أو فعلاً عن الإنسان وتحليان نفسه بحلية ما يقابلها من الصفات الكريمة الإلهية من التقوى بالله، والتعزز بالله وغيرهما من مناعة وكبرياء واستغناء وهيبة إلهية ربانية.

وأيضاً قد تكرر في كلامه تعالى: ﴿أَنَّ الْمَلِكَ لِلَّهِ﴾، وأن له ملك السموات والأرض وأن له ما في السماوات والأرض، وحقيقة هذا الملك كما هو ظاهر لا تبقى لشيء من الموجودات استقلالاً دونه، واستغناء عنه بوجه من الوجوه، فلا شيء إلا وهو سبحانه المالك لذاته ولكل ما لذاته، وإيمان الإنسان بهذا الملك وتحققه به يوجب سقوط جميع الأشياء ذاتاً ووصفاً وفعلاً عنده عن درجة الاستقلال، فهذا الإنسان لا يمكنه أن يريد

(١) سورة الكهف: ٧.

(٢) سورة يونس: ٦٥.

(٣) سورة البقرة: ١٦٥.

غير وجهه تعالى، ولا أن يخضع لشيء، أو يخاف أو يرجو شيئاً، أو يلتذ أو يستهيج بشيء، أو يركن إلى شيء أو يتوكل على شيء أو يسلم لشيء أو يفوض إلى شيء، غير وجهه تعالى، وبالجمل لا يريد ولا يطلب شيئاً إلا وجهه الحق الباقي بعد فناء كل شيء، ولا يعرض إعراضاً ولا يهرب إلا عن الباطل الذي هو غيره الذي لا يرى لوجوده وقفاً ولا يعاب به قبال الحق الذي هو وجود باريه جل شأنه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَهُ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿وَعَسَى الْوُجُودُ لِلَّهِ الْقَبُومُ﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله: ﴿كُلُّ لَمْ يَفْنَوْا﴾<sup>(٥)</sup>، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾<sup>(٦)</sup>، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(٧)</sup>، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾<sup>(٨)</sup>، وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَيْنَا الْمُنْتَهَىٰ﴾<sup>(٩)</sup>.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ الْقَدِيرِينَ﴾ الذين إذا أصببتهم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ إلى آخرها فإن هذه الآيات وأمثالها مشتملة على معارف خاصة إلهية ذات نتائج خاصة حقيقية لا تشابه تربيتها نوع التربية التي يقصدها حكيم أخلاقي في فقهه ولا تنوع التربية التي منها الأنبياء في شرائعهم، فإن المسلك الأول كما عرفت مبني على العقائد العامة الاجتماعية في الحسن والقبح والمسلك الثاني مبني على العقائد العامة الدينية في التكاليف العبودية ومجازاتها، وهذا المسلك الثالث مبني على

- 
- (١) سورة طه: ٨.
  - (٢) سورة الأنعام: ١٠٢.
  - (٣) سورة السجدة: ٧.
  - (٤) سورة طه: ١١١.
  - (٥) سورة البقرة: ١١٦.
  - (٦) سورة الإسراء: ٢٣.
  - (٧) سورة فصلت: ٥٣.
  - (٨) سورة فصلت: ٥٤.
  - (٩) سورة النجم: ٤٢.

التوحيد الخالص الكامل الذي يختص به الإسلام على مشرعه وآله أفضل الصلاة هذا .

فإن تعجب فعجب قول بعض المستشرقين من علماء الغرب في تاريخه الذي يبحث فيه عن تمدن الإسلام، وحاصله: أن الذي يجب للباحث أن يعتني به هو البحث عن شؤون المدنية التي بسطتها الدعوة الدينية الإسلامية بين الناس من متبعيها، والمزايا والخصائص التي خلفها وورثها فيهم من تقدم الحضارة وتعالى المدنية، وأما المعارف الدينية التي يشتمل عليها الإسلام فهي مواد أخلاقية يشترك فيها جميع النبوات، ويدعو إليها جميع الأنبياء هذا .

وأنت بالإحاطة بما قدمناه من البيان تعرف سقوط نظره وخطأ رأيه فإن النتيجة فرع لمقدمتها، والآثار الخارجية المترتبة على التربية إنما هي مواليد ونتائج لنوع العلوم والمعارف التي تلقاها المتعلم المتربي، وليس سواء قول يدعو إلى حق نازل وكمال متوسط وقول يدعو إلى محض الحق وأقصى الكمال، وهذا حال هذا المسلك الثالث، فأول المسالك يدعو إلى الحق الاجتماعي، وثانيها يدعو إلى الحق الواقعي والكمال الحقيقي الذي فيه سعادة الإنسان في حياته الآخرة، وثالثها يدعو إلى الحق الذي هو الله، ويبني تربيته على أن الله سبحانه واحد لا شريك له، وينتج العبودية المحضة، وكم بين المسالك من فرق!

وقد أهدى هذا المسلك إلى الاجتماع الإنساني جمعاً غفيراً من العباد الصالحين والعلماء الربانيين، والأولياء المقربين رجالاً ونساءً، وكفى بذلك شرفاً للدين .

على أن هذا المسلك ربما يفترق عن المسلكين الآخرين بحسب النتائج، فإن بناءه على الحب العبودي، وإشار جانب الرب على جانب العبد، ومن المعلوم أن الحب والولاء والقيم ربما يدل الإنسان المحب على أمور لا يستصوبه العقل الاجتماعي الذي هو ملاك الأخلاق الاجتماعية، أو الفهم العام العادي الذي هو أساس التكليف العامة الدينية، فللعقل أحكام، وللحب أحكام<sup>(١)</sup> .

(١) راجع الميزان المجلد ١ ص ٣٥١ .

## علم الأخلاق

(وهو الفن الباحث عن الملكات الإنسانية المتعلقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية، وتميز الفضائل منها من الرذائل ليستكمل الإنسان بالتحلي والاتصاف بها سعادته العلمية، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني) يظفر ببحثه أن الأخلاق الإنسانية تنتهي إلى قوى عامة ثلاثة فيه هي الباعثة للنفس على اتخاذ العلوم العملية التي تستند وتنتهي إليها أفعال النوع وتهبئها وتعبئها عنده وهي القوى الثلاث: الشهوية والغضبية والنطقية الفكرية، فإن جميع الأعمال الأفعال الصادرة عن الإنسان إما من قبيل الأفعال المنسوبة إلى جلب المنفعة كالأكل والشرب واللبس وغيره، وإما من الأفعال المنسوبة إلى دفع المضرة كدفاع الإنسان عن نفسه وعرضه وماله وشجوه ذلك، وهذه الأفعال هي الصادرة عن المبدأ الغضبي كما أن القسم السابق عليها صادر عن المبدأ الشهوي، وإما من الأعمال المنسوبة إلى التصور والتصديق الفكري، كتأليف القياس وإقامة الحجة وغير ذلك، وهذه الأفعال صادرة عن القوة النطقية الفكرية، ولما كانت ذات الإنسان كالمؤلفة المركبة من هذه القوى الثلاث التي باتحادها وحصول الوحدة التركيبية منها يصدر أفعال خاصة نوعية، ويبلغ الإنسان سعادته التي من أجلها جعل هذا التركيب، فمن الواجب لهذا النوع أن لا يدع قوة من هذه القوى الثلاث تسلك مسلك الإفراط أو التفريط وتميل عن حاق الوسط إلى طرفي الزيادة والتقصية فإن في ذلك خروج جزء المركب عن المقدار المأخوذ منه في جعل أصل التركيب وفي ذلك خروج المركب عن كونه ذاك المركب ولازمه بطلان غاية التركيب التي هي سعادة النوع.

وحد الاعتدال في القوة الشهوية - وهي استعمالها على ما ينبغي كمّا

وكيفاً يسمى عفة، والجانبان من الإفراط والتفريط الشره والخمود، وحدّ الاعتدال في القوة الغضبية هي الشجاعة، والجانبان الثور والجبن، وحدّ الاعتدال في القوة الفكرية تسمى حكمة، والجانبان الجريزة والبلادة، وتحصل في النفس من اجتماع هذه الملكات ملكة رابعة هي كالمزاج من الممتزج، وهي التي تسمى عدالة، وهي إعطاء كل ذي حق من القوى حقه، ووضعها في موضعه الذي ينبغي له. والجانبان فيها الظلم والانظلام.

فهذه أصول الأخلاق الفاضلة أعني:

العفة والشجاعة والحكمة والعدالة، ولكل منها فروع ناشئة منها راجعة بحسب التحليل إليها، نسبتها إلى الأصول المذكورة كنسبة النوع إلى الجنس كالجود والسخاء والقناعة والشكر، والصبر والشهامة، والجرأة والحياء، والغيرة والنصيحة، والكرامة والتواضع، وغيرها، هي فروع الأخلاق الفاضلة المضبوطة في كتب الأخلاق (وهاك شجرة تبين أصولها وتفرع فروعها):







وعلم الأخلاق يبين حد كل واحد منها ويميزها من جانبها في الإفراط والتفريط ثم يبين أنها حسنة جميلة ثم يشير إلى كيفية اتخاذها ملكة في النفس من طريقي العلم والعمل أعني الإذعان بأنها حسنة جميلة، وتكرار العمل بها حتى تصبح هيئة راسخة في النفس.

مثاله أن يقال: إن الجبن إنما يحصل من تمكن الخوف من النفس، والخوف إنما يكون من أمر ممكن الوقوع وعدم الوقوع، والمساوي الطرفين يقبح ترجيح أحد طرفيه على الآخر من غير مرجع والإنسان العاقل لا ينبغي له ذلك فلا ينبغي للإنسان أن يخاف.

فلذا لقن الإنسان نفسه هذا القول ثم كرر الإقدام والورود في المخاوف والمهاول زالت عنه رذيلة الخوف، وهكذا الأمر في غيره من الرذائل والفضائل.

فهذا ما يقتضيه المسلك الأول على ما تقدم في البيان وخلاصته إصلاح النفس وتعديل ملكاتها لغرض الصفة المحمودة والثناء الجميل.

ونظيره ما يقتضيه المسلك الثاني، وهو مسلك الأنبياء وأرباب الشرائع، وإنما التفاوت من حيث الغرض والغاية، فإن غاية الاستكمال الخلقي في المسلك الأول الفضيلة المحمودة عند الناس والثناء الجميل منهم وغايته في المسلك الثاني السعادة الحقيقية للإنسان وهو استكمال الإيمان بالله وآياته، والخير الأخروي وهي سعادة وكمال في الواقع لا عند الناس فقط، ومع ذلك فالمسلكان يشتركان في أن الغاية القصوى والغرض فيها الفضيلة الإنسانية من حيث العمل.

وأما المسلك الثالث المتقدم بيانه فيفارق الأولين بأن الغرض فيه ابتغاء وجه الله لا اقتناء الفضيلة الإنسانية ولذلك ربما اختلف المقاصد التي فيه مع ما في المسلكين الأولين فربما كان الاعتدال الخلقي فيه غير الاعتدال الذي فيهما وعلى هذا القياس، بيان ذلك أن العبد إذا أخذ إيمانه في الإشتداد والازدياد انجذبت نفسه إلى التفكير في ناحية ربه، واستحضار أسمائه الحسنى، وصفاته الجميلة المزهة عن النقص والشين ولا تزال تزيد نفسه انجذاباً، وتترقى مراقبة حتى صار يعبد الله كأنه يراه وأن ربه يراه،

ويتجلى له في مجالي الجذبة والمراقبة والحب فيأخذ الحب في الاشتداد لأن الإنسان مفطور على حب الجميل، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، وصار يتبع الرسول في جميع حركاته وسكناته لأن حب الشيء يوجب حب آثاره، والرسول من آثاره وآياته كما أن العالم أيضاً آثاره وآياته تعالى، ولا يزال يشتد هذا الحب ثم يشتد حتى ينقطع إليه من كل شيء، ولا يحب إلا ربه، ولا يخضع قلبه إلا لوجهه فإن هذا العبد لا يعثر بشيء ولا يقف على شيء وعنده شيء من الجمال والحسن إلا وجد أن ما عنده أنموذج يحكي ما عنده من كمال لا ينفد وجمال لا يتأهى وحسن لا يحد، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء وكل ما كان لغيره فهو له، لأن كل ما سواه آية له ليس له إلا ذلك والآية لا نفسية لها. وإنما هي حكاية تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحب على قلبه، ولا يزال يستولي، ولا ينظر إلى شيء إلا لأنه آية من آيات ربه، وبالعجالة فينقطع حبه عن كل شيء إلى ربه، فلا يحب شيئاً إلا الله سبحانه وفي الله سبحانه.

وحيث يتبدل نحو إدراكه وحمله فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله سبحانه قبله ومعه وتسقط الأشياء عنده من غير الاستقلال فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس لأنهم يعملون إلى كل شيء من وراء حجاب الاستقلال بخلافه، هذا من جهة العلم، وكذلك الأمر من جهة العمل فإنه إذا كان لا يحب إلا الله فلا يريد شيئاً إلا الله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف ولا يختار، ولا يترك، ولا ييأس، ولا يستوحش، ولا يرضى، ولا يسخط إلا الله وفي الله فيختلف أغراضه مع ما للناس من الأغراض وتبدل غاية أفعاله فإنه قد كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنه فضيلة إنسانية ويحذر الفعل أو الخلق لأنه رذيلة إنسانية.

وأما الآن فإنما يريد وجه ربه، ولا هم له في فضيلة ولا رذيلة، ولا شغل له بثناء جميل وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة أو جنة أو نار، وإنما همه ربه، وزاده ذل عبوديته، ودليله حبه.

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

روت لي أحاديث الغرام صياغة  
 بإسنادها عن جيرة المعلم الفرد  
 وحدثني مرّ النسيم عن الصبا  
 عن الدوح عن وادي الغضا عن ربي نجد  
 عن الدمع عن عيني القريح عن الجوى  
 عن الحزن عن قلبي الجريح عن الوجد  
 بأن غرامي والهوى قد تحالفا  
 على تلفي حتى أوشد في لحدي<sup>(١)</sup>



مكتبة دار الفنون

(١) انظر الميزان مجلد ١ ص ٣٦٨.

## أبحاث حول التقوى الديني ودرجاته في فصول

١ - القانون والأخلاق الكريمة والتوحيد: لا يسعد القانون إلا بإيمان تحفظه الأخلاق الكريمة والأخلاق الكريمة لا تتم إلا بالتوحيد فالتوحيد هو الأصل الذي عليه تنمو شجرة السعادة الإنسانية وتتفرع بالأخلاق الكريمة، وهذه الفروع هي التي تثمر ثمراتها الطيبة في المجتمع، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَرِ كَيْفَ مَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ \* تُؤْتِي أُصْلُهَا كُلَّ حِينٍ رِإْذِينَ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾<sup>(١)</sup>. فجعل الإيمان بالله كشجرة لها أصل وهو التوحيد لا محالة وأكل تزيته كل حين بإذن ربها وهو العمل الصالح، وفرع وهو الخلق الكريم كالتقوى والعفة والمعرفة والشجاعة والعدالة والرحمة ونظائرها.

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾<sup>(٢)</sup> فجعل سعادة الصعود إلى الله وهو القرب منه تعالى للكلم الطيب وهو الاعتقاد الحق وجعل العمل الذي يصلح له ويناسبه هو الذي يرفعه ويمدده في صعوده.

بيان ذلك: إن من المعلوم أن الإنسان لا يتم له كماله النوعي ولا يسعد في حياته التي لا بغية له أعظم من إسعادها إلا باجتماع من أفراد يتعاونون على أعمال الحياة على ما فيها من الكثرة والتنوع وليس يقوى

(١) سورة إبراهيم: ٢٦.

(٢) سورة فاطر: ١٠.

الواحد من الإنسان على الإتيان بها جميعاً .

وهذا هو الذي أحوج الإنسان الاجتماعي إلى أن يتسن بسنن وقوانين يحفظ بها حقوق الأفراد عن الضيعة والفساد حتى يعمل كل منهم ما في وسعه العمل به ثم يبادلوا أعمالهم فينال كل من النتائج المعدة ما يعادل عمله ويقدره وزنه الاجتماعي من غير أن يظلم القوي المقتدر أو يظلم الضعيف العاجز .

ومن المسلم أن هذه السنن والقوانين لا تثبت مؤثرة إلا بسنن وقوانين أخرى جزائية تهدد المتخلفين عن السنن والقوانين المتعدين على حقوق ذوي الحقوق، وتخوفهم بالسينة قبال السينة وبأخرى تشوقهم وترغبهم في عمل الخيرات وتضمن إجراء الجميع القوة الحاكمة التي تحكم فيهم وتسيطر عليهم بالعدل والصدق .

وإنما تتحقق هذه الأمنية إذا كانت القوة المجرية للقوانين عالمة بالجرم وقوية على المجرم، وأما إذا جهلت ووقع الإجرام على جهل منها أو غفلة - وكم له من وجود - فلا مانع ينفع من تحقيقه، والقوانين لا أيدي لها تبطش بها، وكذا إذا ضعفت الحكومة بفقد القوى اللازمة أو مساهلة في السياسة والعمل فظهر عليها المجرم أو كان المجرم أشد قوة ضاعت القوانين وفشت التخلفات والتعدييات على حقوق الناس، والإنسان مستخدم بالطبع يجبر النفع إلى نفسه ولو أضر غيره .

وتشتد هذه البلوى إذا تركزت هذه القوة في القوة المجرية أو من يتولى أزمة جميع الأمور فاستضعف الناس وسلب منهم القدرة على رده إلى العدل وتقويمه بالحق فصار ذا قوة وشوكة لا يقاوم في قوته ولا يعارض في إرادته .

والتواريخ المحفوظة مملوءة من قصص الجبابرة والطواغيت وتحكماتها الجائرة على الناس، وهو ذا نصب أعيننا في أكثر أقطار الأرض .

فالقوانين والسنن وإن كانت عادلة في حدود مفاهيمها، وأحكام الجزاء وإن كانت بالغة في شدتها لا تجري على رسلها في المجتمع ولا

تسد باب الخلاف وطريق التخلف إلا بأخلاق فاضلة إنسانية تقطع دابر الظلم والفساد كملكة اتباع الحق واحترام الإنسانية والعدالة والكرامة والحياة ونشر الرحمة ونظائرها .

ولا يغرنك ما تشاهده من القوة والشوكة في الأمم الراقية والانتظام والعدل الظاهر فيما بينهم ولم توضع قوانينهم على أسس أخلاقية حيث لا ضامن لإجرائها فإنهم أمم يفكرون فكرة اجتماعية لا يرى الفرد منهم إلا نفع الأمة وخيرها ولا يدفع إلا ما يضر أمته، ولا هم لأمنته إلا استرقاق سائر الأمم الضعيفة واستدراهم، واستعمار بلادهم، واستباحة نفوسهم وأعراضهم وأموالهم فلم يورثهم هذا التقدم والرقى إلا نقل ما كان يحمله الجبابرة الماضون على الأفراد إلى المجتمعات فقامت الأمة اليوم مقام الفرد بالأمس، وهجرت الألفاظ معانيها إلى أضدادها تطلق الحرية والشرافة والعدالة والفضيلة ولا يراد بها إلا الرقبة والخسة والظلم والرذيلة .

وبالجملة السنن والقوانين لا تأمن التخلف والضيعة إلا إذا تأسست على أخلاق كريمة إنسانية وانتظمت بها .

ثم الأخلاق لا تنفي بإسعاد المجتمع ولا تسوق الإنسان إلى صلاح العمل إلا إذا اعتمدت على التوحيد وهو الإيمان بأن للعالم - ومنه الإنسان - إلهاً واحداً سرمدياً لا يعزب عن علمه شيء، ولا يغلب في قدرته عن أحد خلق الأشياء على أكمل نظام لا حاجة منه إليها وسيعيدهم إليه فيحاسبهم فيجزى المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته ثم يخلدون منعمين أو معذبين .

ومن المعلوم أن الأخلاق إذا اعتمدت على هذه العقيدة لم يبق للإنسان هم إلا مراقبة رضاء تعالى في أعماله، وكانت التقوى رادعاً داخلياً له عن ارتكاب الجرم ولولا ارتضاع الأخلاق من ثدي هذه العقيدة عقيدة التوحيد لم يبق للإنسان غاية في أعماله الحيوية إلا التمتع بمتاع الدنيا الفانية والتلذذ بلذائذ الحياة المادية، وأقصى ما يمكنه أن يعدل به معاشه، فيحفظ به القوانين الاجتماعية الحيوية أن يفكر في نفسه أن من الواجب عليه أن يلتزم القوانين الدائرة حفظاً للمجتمع من التلاشي وللإجتماع من الفساد، وأن من اللازم عليه أن يحرم نفسه من بعض مشتبهاته ليحتفظ به المجتمع

فينال بذلك البعض الباقي، ويثني عليه الناس ويمدحوه ما دام حياً أو يكتب اسمه في أوراق التاريخ بخطوط ذهبية.

أما ثناء الناس وتقديرهم العمل فإنما يجري في أمور هامة علموا بها أما الجزئيات وما لم يعلموا بها كالأعمال السرية فلا وقاء يقيها، وأما الذكر الجاري والاسم السامي ويؤثر غالباً فيما فيه تفدية وتضحية من الأمور كالقتل في سبيل الوطن وبذل المال والوقت في ترفيع مباني الدولة ونحو ذلك فليس ممن يبتغيه ويدعن به ثم لا بدعن بما وراء الحياة الدنيا إلا اعتقاداً خرافياً إذ لا إنسان - على هذا - بعد الموت والفوت حتى يعود إليه شيء من النفع بشيء أو حسن ذكر وأي عاقل يشتري تمتع غيره بحرمان نفسه من غير أي فائدة عائدة أو يقدم الحياة لغيره باختيار الموت لنفسه وليس عنده بعد الموت إلا البطلان والاعتقاد الخرافي يزول بأدنى تنبه والتفات.

فقد تبين أن شيئاً من هذه الأمور ليس من شأنه أن يقوم مقام التوحيد، ولا أن يخلفه في صد الإنسان عن المعصية ونقض السن والقوانين وخاصة إذا كان العمل مما من طبعه أن لا يظهر للناس وخاصة إذا كان من طبعه أن لو ظهر ظهر على خلاف ما هو عليه لأسباب تقتضي ذلك كالتعفف الذي يزعم أنه كان شراً وبغياً كما في حديث امرأة العزيز يوسف عليه السلام، وقد كان أمره يدور بين خيانة العزيز في امرأته وبين اتهام المرأة إياه عند العزيز بقصدها بالسوء فلم يمنعه عليه السلام - ولا كان من الحري أن يمنعه - شيء إلا العلم بمقام ربه.

٢ - يحصل التقوى الديني بأحد أمور ثلاثة وإن شئت فقل: إنه سبحانه يعبد بأحد طرق ثلاثة: الخوف والرجاء والحب، قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا لِّلْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾<sup>(١)</sup> فعلى المؤمن أن يتنبه لحقيقة الدنيا وهي أنها متاع الغرور كسراب ببيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فعليه أن لا يجعلها غاية لأعماله في الحياة، وأن يعلم أن له وراءها داراً وهي الدار الآخرة فيها ينال غاية أعماله، وهي عذاب شديد للسبئات يجب أن يخافه ويخاف الله فيه، ومغفرة

(١) سورة الحديد: ٢٠.



من الله قبال أعماله الصالحة يجب أن يرجوها ويرجو الله فيها، ورضوان من الله يجب أن يقدمه لرضى نفسه.

وطباع الناس مختلفة في إثارة الطرق الثلاثة واختيارها فبعضهم وهو الغالب يغلب على نفسه الخوف، وكلما فكر فيما أوعده الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعد لهم زاد في نفسه خوفاً ولقوائمه ارتعاداً ويساق بذلك إلى عبادته تعالى خوفاً من عذابه.

وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء وكلما فكر فيما وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاء وبالح في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعاً في المغفرة والجنة.

وطائفة ثالثة وهم العلماء بالله لا يعبدون الله خوفاً من عقابه ولا طمعاً في ثوابه وإنما يعبدونه لأنه أهل للعبادة وذلك لأنهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العليا فعلموا أنه ربهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكل شيء غيرهم، ويدبر الأمر وحده وليسوا إلا عباد الله فحسب، وليس للعبد إلا أن يعبد ربه، ويقدم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله ولا يريدون في شيء من أعمالهم فعلاً أو تركاً إلا وجهه، ولا يلتفتون فيها إلى عقاب يخوفهم ولا إلى ثواب يرجيهم، وإن خافوا عذابه ورجوا رحمته، وإلى هذا يشير قوله ﷻ: ما عبدتك خوفاً من نارك ولا رغبة في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك.

وهؤلاء لما خصوا رغباتهم المختلفة بابتغاء مرضاة ربهم ومحضوا أعمالهم في طلب غاية هو ربهم تظهر في قلوبهم المحبة الإلهية وذلك أنهم يعرفون ربهم بما عرفهم به نفسه، وقد سمى نفسه بأحسن الأسماء ووصف ذاته بكل صفة جميلة، ومن خاصة النفس الإنسانية أن تنجذب إلى الجميل فكيف بالجميل على الإطلاق وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَلْعَبُدُوهُ﴾<sup>(١)</sup> ثم قال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾<sup>(٢)</sup> فأفاد أن الخلقة تدور مدار الحسن وأنهما متلازمان متصادقان ثم ذكر سبحانه

(١) سورة الأنعام: ١٠٢.

(٢) سورة المجلة: ٧.

في آيات كثيرة أن ما خلقه من شيء آية تدل عليه وأن في السموات والأرض  
لآيات لأولي الأبصار فليس في الوجود ما لا يدل عليه تعالى ولا يحكي  
شيئاً من جماله وجلاله .

فالأشياء من جهة أنواع خلقها وحسنها تدل على جماله الذي لا  
يتناهى وتحمده وتثني على حسنه الذي لا يفنى، ومن جهة ما فيها من أنواع  
النقص والحاجة تدل على غناه المطلق وتسبح وتنزه ساحة القدس والكبرياء  
كما قال تعالى : ﴿وَلَنْ يَنْ شَوْءٌ إِلَّا يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ﴾<sup>(١)</sup> .

فهؤلاء يسلكون في معرفة الأشياء من طريق هداهم إليه ربهم وعرفها  
لهم وهو أنها آيات له وعلامات لصفات جماله وجلاله، وليس لها من  
النفسية والأصالة والاستقلال إلا أنها كمرائي تجلي بحسنها ما وراءها من  
الحسن غير المتناهي وبفقرها وحاجتها ما أحاط بها من الغنى المطلق،  
وبذلها واستكانتها ما فوقها من العزة والكبرياء، ولا يلبث الناظر إلى الكون  
بهذه النظرة دون أن تنجذب نفسه إلى ساحة العزة والعظمة ويشفى قلبه من  
المحبة الإلهية ما ينسيه نفسه وكل شيء، ويمحو رسم الأهواء والأميال  
النفسانية عن باطنه، ويبدل فؤاده قلباً سليماً ليس فيه إلا الله عز اسمه، قال  
تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولذلك يرى أهل هذا الطريق أن الطريقين الآخرين أعني طريق العبادة  
خوفاً وطريق العبادة طمعاً لا يخلوان من شرك فإن الذي يعبدته تعالى خوفاً  
من عذابه يتوسل به تعالى إلى دفع العذاب عن نفسه كما أن من يعبدته طمعاً  
في ثوابه يتوسل به تعالى إلى الفوز بالنعمة والكرامة، ولو أمكنه الوصول إلى  
ما يبتغيه من غير أن يعبدته لم يعبدته ولا حام حول معرفته، وعن  
الصادق عليه السلام : «أهل الدين إلا الحب» وقوله عليه السلام في حديث : «إني أعبدته  
حُباً له وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلا المطهرون» الحديث، وإنما كان أهل  
الحب مطهرين لتنزههم عن الأهواء النفسانية والألوات المادية فلا يتم  
الإخلاص في العبادة إلا من طريق الحب .

(١) سورة الإسراء : ٤٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٥ .

٣ - كيف يورث الحب الإخلاص؟ عبادته تعالى، خوفاً من العذاب تبعث الإنسان إلى التروك وهو الزهد في الدنيا للنجاة في الآخرة فالزاهد من شأنه أن يتجنب المحرمات أو ما في معنى الحرام أعني ترك الواجبات، وعبادته تعالى طمعاً في الثواب تبعث إلى الأفعال وهو العبادة في الدنيا بالعمل الصالح لنيل نعم الآخرة والجنة فالعابد من شأنه أن يلتزم الواجبات أو ما في معنى الواجب وهو ترك الحرام، والطريقان معاً إنما يدعوان إلى الإخلاص للدين لا لرب الدين.

وأما محبة الله سبحانه فإنها تطهر القلب من التعلق بغيره تعالى من زخارف الدنيا وزينتها من ولد أو زوج أو مال أو جاه حتى النفس وما لها من حظوظ وآمال، وتقتصر القلب في التعلق به تعالى وبما ينسب إليه من دين أو نبي أو ولي وسائر ما يرجع إليه تعالى بوجه فإن حب الشيء حب لآثاره.

فهذا الإنسان يحب من الأعمال ما يحبه الله ويبغض منها ما يبغضه الله ويرضى برضا الله ولرضاه ويبغض ويبغض الله ولغضبه، وهو النور الذي يضيء له طريق العمل، قال تعالى: ﴿أَوْ كَانَ مَيًّا فَآخِيزْنَهُ وَجَعَلْنَا كُمُ تَوْرًا يَمْشِي بِهُ فِي آتَايَسٍ﴾<sup>(١)</sup>. والروح التي تشير إليه بالخيرات والأعمال الصالحات، قال تعالى: ﴿وَأَنذَهُمْ بِرُوحِ مَنَّا﴾<sup>(٢)</sup> وهذا هو السر في أنه لا يقع منه إلا الجميل والخير ويتجنب كل مكروه وشر.

وأما الموجودات الكونية والحوادث الواقعة فإنه لا يقع بصره على شيء منها خطير أو حفيظ، كثير أو يسير إلا أحبه واستحسنه لأنه لا يرى منها إلا أنها آيات محضة تجلي له ما وراءها من الجمال المطلق والحسن الذي لا يتناهى العاري من كل شين ومكروه.

ولذلك كان هذا الإنسان محبوراً بنعمة ربه بسرور لا غم معه ولذة وابتهاج لا ألم ولا حزن معه، وأمن لا خوف معه، فإن هذه العوارض السوء إنما تظراً عن إدراكك للسوء وترقب للشر والمكروه، ومن كان لا يرى إلا الخير والجميل ولا يجد إلا ما يجري على وفق إرادته ورضاه فلا سبيل

(١) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

للغم والحزن والخوف وكل ما يسوء الإنسان ويؤذيه إليه بل ينال من السرور والابتهاج والأمن ما لا يقدره ولا يحيط به إلا الله سبحانه وهذا أمر ليس في وسع النفوس العادية أن تنعقله وتكتنهه إلا بنوع من التصور الناقص.

واليه يشير أمثال قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰكَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُنْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهؤلاء هم المقربون الفائزون بقربه تعالى إذ لا يحول بينهم وبين ربهم شيء مما يقع عليه الحس أو يتعلق به الوهم أو تهواه النفس أو يلبسه الشيطان فإن كل ما يتراءى لهم ليس إلا آية كاشفة عن الحق المتعال لا حجاباً ساتراً فيفيض عليهم ربهم علم اليقين، ويكشف لهم عما عنده من الحقائق المستورة عن هذه الأعين المادية العمية بعد ما يرفع الستر فيما بينه وبينهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لَفِي عِزٍّ وَمَا أَتُوبَكَ مَا عِيلُونَ﴾ كِتَابُ نَزَّاهُمْ \* بِشَهِدَةِ الْقُرْآنِ<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وبالجملة هؤلاء في الحقيقة هم المستوكلون على الله المفوضون إليه الراضون بقضائه المسلمون لأمره إذ لا يرون إلا خيراً ولا يشاهدون إلا جميلاً فيستقر في نفوسهم من الملكات الشريفة والأخلاق الكريمة ما يلائم هذا التوحيد فهم مخلصون لله في أخلاقهم كما كانوا مخلصين له في أعمالهم، هذا معنى إخلاص العبد دينه لله قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادُّوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾<sup>(٥)</sup>.

٤ - وأما إخلاصه تعالى عبده له فهو ما يجده العبد في نفسه من الإخلاص له منسوباً إليه تعالى فإن العبد لا يملك من نفسه شيئاً إلا بالله،

(١) سورة يونس: ٦٣.

(٢) سورة الأنعام: ٨٢.

(٣) سورة المطففين: ٢١.

(٤) سورة التكاثر: ٦.

(٥) سورة المؤمن: ٦٥.

والله سبحانه هو المالك لما ملكه إياه فأخلصه دينه - وإن شئت فقل :  
إخلصه نفسه لله هو إخلصه تعالى إياه لنفسه .

نعم ههنا شيء وهو أن الله سبحانه خلق بعض عباده هؤلاء على  
استقامة الفطرة واعتدال الخلقة فنشأوا من باديء الأمر بأذهان وقادة  
وإدراكات صحيحة ونفوس طاهرة وقلوب سليمة فنالوا بمجرد صفاء الفطرة  
وسلامة النفس من نعمة الإخلاص ما ناله غيرهم بالاجتهاد والكسب بل  
أعلى وأرقى لطهارة داخلهم من التلوث بالوثا الحيوانية والمزاحمات  
والظواهر أن هؤلاء هم المخلصون - بالفتح - لله في عرف القرآن .

وهؤلاء هم الأنبياء والأئمة ، وقد نص القرآن بأن الله اجتباهم أي  
جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته ، قال تعالى : ﴿ وَاجْتَبَيْتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ <sup>(١)</sup> ، وقال : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ <sup>(٢)</sup> .

وآتاهم الله سبحانه من العلم بما هو ملكة تعصمهم من اقتراف الذنوب  
وارتكاب المعاصي ، وتمتنع بها صدورهم شيء منها عنهم صغيرة أو كبيرة ،  
وبهذا تمتاز العصمة من العدالة فإنهما معاً تمتنعان من صدور المعصية لكن  
العصمة تمتنع معها الصدور بخلاف العدالة .

وقد تقدم آنفاً أن من خاصة هؤلاء القوم أنهم يعلمون من ربهم ما لا  
يعلمه غيرهم ، والله سبحانه يصدق ذلك بقوله : ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* إِلَّا  
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ <sup>(٣)</sup> ، وأن المحبة الإلهية تبعثهم على أن لا يريدوا إلا ما  
يريد الله وينصرفوا عن المعاصي والله سبحانه يقرر ذلك بما حكاه عن إبليس  
في غير مورد من كلامه كقوله : ﴿ قَالَ فَمِيزْنِكَ لِأَغْوَيْتَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ  
الْمُخْلَصِينَ <sup>(٤)</sup> .

ومن الدليل على أن العصمة من قبيل العلم قوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ  
﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ

(١) سورة الأنعام : ٨٧ .

(٢) سورة الحج : ٧٨ .

(٣) سورة الصافات : ١٦٠ .

(٤) سورة ص : ٨٣ .

إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَصْحُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْكَاهِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويظهر من ذلك أولاً: أن هذا العلم يخالف سائر العلوم في أن أثره العلمي وهو صرف الإنسان عما لا ينبغي إلى ما ينبغي قطعي غير متخلف دائماً بخلاف سائر العلوم فإن الصرف فيها أكثرى غير دائم، قال تعالى: ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا رَأْسِيَّتَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيَا يَنْتَهُمُ﴾<sup>(٥)</sup>.

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، وذلك أن هؤلاء المخلصين من الأنبياء والأئمة عليهم السلام قد بينوا لنا جمل المعارف المتعلقة بأسمائه تعالى وصفاته من طريق السمع، وقد حصلنا العلم به من طريق البرهان أيضاً، والآية مع ذلك تنزهه تعالى عن ما نصفه به دون ما يصفه به أولئك المخلصون فليس إلا أن العلم غير العلم وإن كان متعلق العلمين واحداً من وجهة

وثانياً: أن هذا العلم أعني ملكة العصمة لا يغير الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية ولا يخرجها إلى ساحة الإجبار والاضطرار كيف؟ والعلم من مبادئ الاختيار، ومجرد قوة العلم لا يوجب إلا قوة الإرادة كطالب السلامة إذا أيقن بكون مانع ما سماً قاتلاً من حينه فإنه يمتنع باختياره من شربه قطعاً وإنما يضطر الفاعل ويجبر إذا أخرج من يجبره أحد طرفي الفعل والترك من الإمكان إلى الامتناع.

ويشهد على ذلك قوله: ﴿وَلَجَبْنَاهُمْ أَهْلَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* ذَلِكَ

(١) سورة النساء: ١١٣.

(٢) سورة يوسف: ٣٣.

(٣) سورة النمل: ١٤.

(٤) سورة الجاثية: ١٧.

(٥) سورة الجاثية: ٢٣.

هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(١)</sup>  
 تفيد الآية أنهم في إمكانهم أن يشركوا بالله وإن كان الاجتناء والهدى الإلهي مانعاً من ذلك وقوله: ﴿يُنَادِيَا الرَّسُولَ يَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من الآيات.

فالإنسان المعصوم إنما ينصرف عن المعصية بنفسه ومن عن اختياره وإرادته ونسبة الصبر إلى عصمته تعالى كنسبة انصراف غير المعصوم عن المعصية إلى توفيقه تعالى.

ولا ينافي ذلك أيضاً ما بشير إليه كلامه تعالى ويصرح به الأخبار أن ذلك من الأنبياء والأئمة بتسديد من روح القدس فإن النسبة إلى روح القدس كنسبة تسديد المؤمن إلى روح الإيمان ونسبة الضلال والغواية إلى الشيطان وتحويله فإن شيئاً من ذلك لا يخرج الفعل عن كونه فعلاً صادراً عن فاعله مستنداً إلى اختياره وإرادته فافهم ذلك.

نعم هناك قوم زعموا أن الله سبحانه إنما يصرف الإنسان عن المعصية لا من طريق اختياره وإرادته بل من طريق منازعة الأسباب ومغالبتها بخلق إرادة أو إرسال ملك يقاوم إرادة الإنسان فيعطلها عن التأثير أو يغير مجراها ويحرفها إلى غير ما من طبع الإنسان أن يقصده كما يمنع الإنسان القوي الضعيف عما يريد من الفعل بحسب طبعه.

وبعض هؤلاء وإن كانوا من المجبرة لكن الأصل المشترك الذي يبتني عليه نظرهم هذا وأشباهه أنهم يرون أن حاجة الأشياء إلى البارئ الحق سبحانه إنما هي في حدوثها، وأما في بقائها بعدما وجدت فلا حاجة لها إليه فهو سبحانه سبب في عرض الأسباب إلا أنه لما كان أقدر وأقوى من كل شيء كان له أن يتصرف في الأشياء حال البقاء أي تصرف شاء من منع أو إطلاق وإحياء أو إماتة ومعافاة أو تمريض وتوسعة أو تقثير إلى غير ذلك بالقهر.

(١) سورة الأنعام: ٨٨.

(٢) سورة المائدة: ٦٧.

فإذا أراد الله سبحانه أن يصرف عبداً عن شر مثلاً أرسل إليه ملكاً ينازعه في مقتضى طبعه ويغير مجرى إرادته مثلاً عن الشر إلى الخير أو أراد أن يضل عبداً لاستحقاقه ذلك سلط عليه إبليس فحوله من الخير إلى الشر وإن كان ذلك لا بمقدار يوجب الإجبار والاضطرار.

وهذا مدفوع بما نشاهده من أنفسنا في أعمال الخير والشر مشاهدة عيان أنه ليس هناك سبب آخر يغيرنا وينازعنا فيغلب علينا غير أنفسنا التي تعمل أعمالها عن شعور بها وإرادة مترتبة عليه قائمين بها فالذي يشته السمع والعقل وراء نفوسنا من الأبواب كالملك وكالشيطان سبب طولي لا عرضي وهو ظاهر.

مضافاً إلى أن المعارف القرآنية من التوحيد وما يرجع إليه يدفع هذا القول من أصله<sup>(١)</sup>.



(١) انظر الميزان مجلد ١١ ص ١٥٨.



## التوبة في القرآن الكريم

التوبة بتمام معناها الوارد في القرآن من التعاليم الحقيقية المختصة بهذا الكتاب السماوي فإن التوبة بمعنى الإيمان عن كفر وشرك وإن كانت دائرة في سائر الأديان الإلهية كدين موسى وعيسى عليه السلام لكن لا من جهة تحليل حقيقة التوبة، وتسريتها إلى الإيمان بل باسم أن ذلك إيمان.

حتى أنه يلوح من الأصول التي بنوا عليها الديانة المسيحية المستقلة عدم نفع التوبة واستحالة أن يستفيد منها الإنسان كما يظهر مما أوردوه في توجيه الصلب والفداء.

هذا وقد انجز أمر الكنييسة بعد إلى الإفراط في أمر التوبة إلى حيث كانت تبسح أوراق المغفرة وتتجر بها، وكان أولياء الدين يغفرون ذنوب العاصيين فيما اعترفوا به عندهم؛ لكن القرآن حلل حال الإنسان بحسب وقوع الدعوة عليه وتعلق الهداية به فوجده بالنظر إلى الكمال والكرامة والسعادة الواجبة له في حياته الأخروية عند الله سبحانه التي لا غنى له عنها في سيره الاختياري إلى ربه فقيراً كل الفقر في ذاته صفر الكف بحسب نفسه قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَسْتَأْذِنُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾<sup>(١)</sup>، وقال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا بِمِلْكِكَ مَوْتًا وَلَا حَيَوًى وَلَا تَتُورَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فهو واقع في مهبط الشقاء ومنحط البعد ومنعزل المسكنة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ \* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا \* ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ أَنْقَرُوا

(١) سورة فاطر: ١٥.

(٢) سورة الفرقان: ٣.

(٣) سورة التين: ٥.

وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان كذلك فوروده منزلة الكرامة واستقراره في مستقر السعادة يتوقف على انصرافه عما هو فيه من مهبط الشقاء ومنحط البعد وانقلاعه عنه برجوعه إلى ربه، وهو توبته إليه في أصل السعادة وهو الإيمان، وفي كل سعادة فرعية وهي كل عمل صالح أعني التوبة والرجوع عن أصل الشقاء وهو الشرك بالله سبحانه، وعن فروع الشقاء وهي سيئات الأعمال بعد الشرك، فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله والانخلاع عن ألوان البعد والشقاء يتوقف عليها الاستقرار في دار الكرامة بالإيمان، والتنعم بأقسام نعم الطاعات والقربات، وبعبارة أخرى يتوقف القرب من الله ودار كرامته على التوبة من الشرك ومن كل معصية، قال تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَنتَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٣)</sup> فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله تعم التوبتين جميعاً بل تعمهما وغيرهما على ما سيجيء إن شاء الله.

ثم إن الإنسان لما كان فقيراً في نفسه لا يملك لنفسه خيراً ولا سعادة قط إلا بربه كان محتاجاً في هذا الرجوع أيضاً إلى عناية من ربه بأمره، وإعانة منه له في شأنه فيحتاج رجوعه إلى ربه بالعبودية والمسكنة إلى رجوع من ربه إليه بالتوفيق والإعانة، وهو توبة الله سبحانه لعبده المتقدمة على توبة العبد إلى ربه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَابَ عَلَيْهِمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>، وكذلك الرجوع إلى الله سبحانه يحتاج إلى قبوله بمغفرة الذنوب وتطهيره من القذارات وألوان البعد، وهذه هي التوبة الثانية من الله سبحانه المتأخرة عن توبة العبد إلى ربه كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وإذا تأملت حق التأمل وجدت أن التعدد في توبة الله سبحانه إنما عرض لها من حيث قياسها إلى توبة العبد، وإلا فهي توبة واحدة هي رجوع الله سبحانه إلى عبده بالرحمة، ويكون ذلك عند توبة العبد رجوعاً إليه قبلها

(١) سورة مريم: ٧٢.

(٢) سورة طه: ١١٧.

(٣) سورة النور: ٣١.

(٤) سورة التوبة: ١١٨.

وبعدها، وربما كان مع عدم توبة من العبد كما يستفاد من قوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَافَرُونَ﴾ وأن قبول الشفاعة في حق العبد المذنب يوم القيامة من مصاديق التوبة ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقْبِلُوا مَبَلًا عَظِيمًا﴾<sup>(١)</sup>.

وكذلك القرب والبعد لما كانا نسبيين أمكن أن يتحقق البعد في مقام القرب بنسبة بعض مواقف ومراحله إلى بعض، ويصدق حينئذ معنى التوبة على رجوع بعض المقربين من عباد الله الصالحين من موقفه الذي هو فيه إلى موقف أرفع منه وأقرب إلى ربه، كما يشهد به ما يحكيه تعالى من توبة الأنبياء وهم معصومون بنصر كلامه كقوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿سُبْحَنَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله تعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْمُحَيِّ وَالْإِنْسَانِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَبَاطَةِ الْمُنِيرِ﴾<sup>(٥)</sup>.

وهذه التوبة العامة من الله سبحانه هي التي يدل عليها إطلاق آيات كثيرة من كلامه تعالى كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذُّنُوبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾<sup>(٦)</sup>، وقوله تعالى: ﴿تَقَبَّلِ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾<sup>(٧)</sup>، إلى غير ذلك.

(١) سورة النساء: ٢٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٧.

(٣) سورة البقرة: ١٢٨.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٥) سورة المؤمن: ٥٥.

(٦) سورة التوبة: ١١٧.

(٧) سورة المؤمن: ٣.

(٨) سورة الشورى: ٢٥.

فتلخص مما مرّ أولاً أن نشر الرحمة من الله سبحانه على عبده لمغفرة ذنوبه، وإزالة ظلمة المعاصي عن قلبه - سواء في ذلك الشرك وما دونه - توبة منه تعالى لعبده وأن رجوع العبد إلى ربه لمغفرة ذنوبه وإزالة معاصيه - سواء في ذلك الشرك وغيره - توبة منه إلى ربه. ويتبين به أن من الواجب في الدعوة الحقة أن تعتني بأمر المعاصي كما تعتني بأصل الشرك، وتندب إلى مطلق التوبة الشامل للتوبة عن الشرك والتوبة عن المعاصي.

وثانياً: أن التوبة من الله سبحانه لعبده أعم من المبتدئة واللاحقة فضل منه كسائر النعم التي يتنعم بها خلقه من غير إلزام وإيجاب يرد عليه تعالى من غيره، وليس معنى وجوب قبول التوبة عليه تعالى عقلاً إلا ما يدل عليه أمثال قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾<sup>(١)</sup> وقوله: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿فَاذْكُرْكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، من الآيات المتضمنة لتوصيفه تعالى بقبول التوبة، والنادبة إلى التوبة، الداعية إلى الاستغفار والإنابة وغيرها المشتملة على وعد القبول بالمطابقة أو الالتزام، والله سبحانه لا يخلف الميعاد.

ومن هنا يظهر أن الله سبحانه غير مجبور في قبول التوبة بل له الملك من غير استثناء بفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يقبل ما يقبل من التوبة على ما وعد ويرد ما يرد منها كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> ويمكن أن يكون من هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ يَكُنَّ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾<sup>(٥)</sup>.

ومن عجيب ما قيل في هذا الباب قول بعضهم في قوله تعالى في قصة غرق فرعون وتوبته، ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُمُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنْتُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

(١) سورة غافر: ٣.

(٢) سورة النور: ٣١.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٤) سورة آل عمران: ٩٠.

(٥) سورة النساء: ١٣٧.

«أَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* أَلَفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ»<sup>(١)</sup>.

قال ما محصله: إن الآية لا تدل على رد توبته، وليس في القرآن أيضاً ما يدل على هلاكه الأبدي، وإنه من المستبعد عند من يتأمل سعة رحمة الله وسبقتها غضبه أن يجوز عليه تعالى أنه يرد من التجأ إلى باب رحمته وكرامته مثلاً مستكيناً بالخيبة واليأس، والواحد منا إذا أخذ بالأخلاق الإنسانية الفطرية من الكرم والجود والرحمة ليرحم أمثال هذا الإنسان النادم حقيقة على ما قدم من سوء الفعل فكيف بمن هو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وغيث المستغيثين؟.

وهو مدفوع بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْبِرَّ يَجْعَلُونَ ثَمَرُ تَوْبَتِكَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشَّيْءَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ الآية، فالندامة حينئذ ندم كاذب يسوق الإنسان إلى إظهاره مشاهدته وبال الذنب ونزول البلاء. ولو كان كل ندم توبة وكل توبة مقبولة لدفع ذلك قوله تعالى حكاية لحال الصَّاحِبِينَ يوم القيامة: ﴿وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الحاكية لندمهم على ما فعلوا وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، والرد عليهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

ولياك أن تتوهم أن الذي سلكه القرآن الكريم من تحليل التوبة على ما تقدم توضيحه تحليل ذهني لا عبرة به في سوق الحقائق، وذلك أن البحث في باب السعادة والشقاء والصلاح والطلاح الإنسانيين لا ينتج غير ذلك فإننا إذا اعتبرنا حال الإنسان العادي في المجتمع على ما نراه من تأثير التعليم والتربية في الإنسان وجدناه خالياً في نفسه عن الصلاح والطلاح الاجتماعيين قابلاً للآمرين جميعاً ثم إذا أراد أن يتحلى بحلية الصلاح، ويتلبس بلباس التقوى الاجتماعي لم يمكن له ذلك إلا بتوافق الأسباب على

(١) سورة يونس: ٩١.

(٢) سورة صبا: ٣٣.

خروجه من الحال الذي فيه، وذلك يحاذي التوبة الأولى من الله سبحانه في باب السعادة المعنوية ثم انتزاعه وانصراف نفسه عما هو فيه من رثاث الحال وقيد التشبث والإهمال، وهو توبة بمنزلة التوبة من العبد فيما نحن فيه. ثم زوال هيئة الفساد ووصف الرذالة المستولية على قلبه حتى يستقر فيه وصف الكمال ونور الصلاح فإن القلب لا يسع الصلاح والصلاح معاً، وهذا يحاذي قبول التوبة والمغفرة فيما نحن فيه وكذلك يجري في مرحلة الصلاح الاجتماعي الذي يسير فيه الإنسان بفطرته جميع ما اعتبره الدين في باب التوبة من الأحكام والآثار جرياً على الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وثالثاً: أن التوبة كما يستفاد من مجموع ما تقدم من الآيات المنقولة وغيرها إنما هي حقيقة ذات تأثير في النفس الإنسانية من حيث إصلاحها وإعدادها للصلاح الإنساني الذي فيه سعادة دنياء وآخرته وبعبارة أخرى التوبة إنما تنفع - إذا نفعت - في إزالة السيئات النفسانية التي تجر إلى الإنسان كل شقاء في حياته الأولى والأخرى وتمتعه من الاستقرار على أريكة السعادة، وأما الأحكام الشرعية والقوانين الدينية فهي بحالها لا ترتفع عنه بتوبة كما لا ترتفع عنه بمعصية.

نعم ربما ارتبط بعض الأحكام بها فلم ترفع بالتوبة بحسب مصالح الجعل، وهذا غير كون التوبة رافعة لحكم من الأحكام قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّهُا مِّنْعَكْمُ فَتَأَدُّهُمْ مَّا نَبَا وَأَصْلَحُوا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ حَكَّامٌ نُّوَابِكُمْ رَجِيمًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ قَاتَلُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فَنَفَخْنَا فِيهِمُ النَّفْثَ الْأَشَدَّ وَالْجِيمَ﴾<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك.

ورابعاً: أن الملاك الذي شرعت لأجله التوبة على ما تبين مما تقدم هو التخلص من هلاك الذنب وبنو المعصية لكونها وسيلة للفلاح ومقدمة

(١) سورة النساء: ١٦.

(٢) سورة المائدة: ٣٤.

الفوز بالسعادة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَثَرَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَلَكُمُ تَفْلِيحُونَ﴾<sup>(١)</sup>، ومن فوائدها مضافة إلى ذلك أن فيها حفظاً لروح الرجاء من الانخماد والركود فإن الإنسان لا يستقيم سيره الحيوي إلا بالخوف والرجاء المتعادلين حتى يندفع عما يضره وينجذب إلى ما ينفعه، ولولا ذلك لهلك، قال تعالى: ﴿قُلْ يَكْبَادِى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، ولا يزال الإنسان على ما نعرف من غريزته على نشاط من الروح الفعالة وجذ في العزيمة والسعي ما لم تخسر صفقته في متجر الحياة، وإذا بدا له ما يخسر عمله ويخيب سعيه ويطل أميته استولى عليه اليأس وانسلت به أركان عمله وربما انصرف بوجهه عن مسيره آيساً من النجاح خالِباً من الفوز والفلاح، والتوبة هي الدواء الوحيد الذي يعالج داءه، ويحى به قلبه وقد أشرف على الهلكة والردى.

ومن هنا يظهر سقوط ما ربما يتوهم أن في تشريع التوبة والدعوة إليها إغراء بالمعصية، وتحريضاً على ترك الطاعة، فإن الإنسان إذا أيقن أن الله يقبل توبته إذا اقترف أي معصية من المعاصي لم يخلف ذلك في نفسه أثراً، دون أن تزيد جرأته على هتك حرمات الله والانغمار في لجج المعاصي والذنوب، فيدق باب كل معصية قاصداً أن يذنب ثم يتوب.

وجه سقوطه: أن التوبة إنما شرعت مضافاً إلى توقف التحلي بالكرامات على غفران الذنوب للحفاظ على صفة الرجاء وتأثيره حسن أثره، وأما ما ذكر من استلزامه أن يقصد الإنسان كل معصية بنيّة أن يعصي ثم يتوب، فقد فاتته أن التوبة بهذا النعت لا يتحقق معها حقيقة التوبة فإنها انقلاع عن المعصية، ولا انقلاع في هذا الذي يأتي به، والدليل عليه أنه كان عازماً على ذلك قبل المعصية ومع المعصية وبعد المعصية، ولا معنى للندامة (أعني التوبة) قبل تحقق الفعل بل مجموع الفعل والتوبة في أمثال هذه المعاصي مأخوذ فعلاً واحداً مقصود بقصد واحد مكرراً وخديعة يخدع

(١) سورة النور: ٣١.

(٢) سورة الزمر: ٥٤.

بها رب العالمين، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

وخامساً: أن المعصية وهي الموقف السوء من الإنسان ذو أثر سيء في حياته لا يثاب منها ولا يرجع عنها إلا مع العلم والإيقان بمساءتها، ولا ينفك ذلك عن الندم على وقوعها أولاً، والندم تأثر خاص باطني من فعل السيء ويتوقف على استقرار هذا الرجوع ببعض الأفعال الصالحة المنافية لتلك السيئة الدالة على الرجوع والتوبة ثانياً.

والى هذا يرجع جميع ما اعتبر شرعاً من آداب التوبة كالندم والاستغفار والتلبس بالعمل الصالح، والانقلاع عن المعصية إلى غير ذلك مما وردت به الأخبار، وتعرض له كتب الأخلاق.

وسادساً: أن التوبة وهي الرجوع الاختياري عن السيئة إلى الطاعة والعبودية إنما تتحقق في طرف الاختيار وهو الحياة الدنيا التي هي مستوى الاختيار، وأما فيما لا اختيار للعبد هناك في انتخاب كل من طريقي الصلاح والطلاح والسعادة والشقاوة فلا مسرح للتوبة فيه، وقد تقدم ما يتضح به ذلك.

ومن هذا الباب التوبة فيما يتعلق بحقوق الناس فإنها إنما تصلح في ما يتعلق بحقوق الله سبحانه، وأما ما يتعلق من السيئة بحقوق الناس مما يحتاج في زواله إلى رضاهم فلا يتدارك بها البتة لأن الله سبحانه أحترم الناس بحقوق جعلها لهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم، وعدّ التعدي إلى أحدهم في شيء من ذلك ظلماً وعدواناً، وحاشاه أن يسلبهم شيئاً مما جعله لهم من غير جرم صدر منهم، فيأتي هو نفسه بما ينهى عنه ويظلمهم بذلك، وقد قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾<sup>(١)</sup>.

إلا أن الإسلام وهو التوبة من الشرك بمحو كل سيئة سابقة وتبعية ماضية متعلقة بالفروع كما يدل عليه قوله ﷺ: الإسلام يعجب ما قبله، وبه تفسر الآيات المطلقة الدالة على غفران السيئات جميعاً كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفِرُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

(١) سورة يونس: ٤٤.



جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ<sup>(١)</sup>.

ومن هذا الباب أيضاً توبة من سنّ سيئة أو أضل الناس عن سبيل الحق وقد وردت الأخبار أن عليه مثل أوزار من عمل بها أو ضلّ عن الحق فإن حقيقة الرجوع لا تتحقق في أمثال هذه الموارد لأن العاصي أحدث فيها حدثاً له آثار يبقى ببقائها، ولا يتمكن من إزالتها كما في الموارد التي لا تتجاوز المعصية ما بينه وبين ربه عزّ اسمه.

وسابعاً: أن التوبة وإن كانت تمحو ما تمحوه من السيئات كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ<sup>(٢)</sup>﴾، بل ظاهر قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا \* وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا<sup>(٣)</sup>﴾، وخاصة بملاحظة الآية الثانية أن التوبة بنفسها أو بضميمة الإيمان والعمل الصالح توجب تبدل السيئات حسنات إلا أن اتقاء السيئة أفضل من اقترافها ثم لم يحاشها بالتوبة فإن الله سبحانه أوضح في كتابه أن المعاصي كيفما كانت إنما تنتهي إلى وساوس شيطانية نوع انتهاء ثم عبر عن المخلصين المعصومين عن ذلّة المعاصي وعشرة السيئات بما لا يعادله كل مدح ورد في غيرهم قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَّتِهِمْ أَتَجِدُ إِلَّا إِعْدَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّصِينَ \* قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ \* إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٍ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ<sup>(٤)</sup>﴾ الآيات، وقال تعالى حكاية عن إبليس أيضاً في القصة: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ<sup>(٥)</sup>﴾. فهؤلاء من الناس مختصون بمقام العبودية التشريفية اختصاصاً لا يشاركهم فيه غيرهم من الصالحين التائبين<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الزمر: ٥٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٧٥.

(٣) سورة الفرقان: ٧١.

(٤) سورة الحجر: ٤٢.

(٥) سورة الأعراف: ١٧.

(٦) انظر الميزان المجلد ٤ ص ٢٥٠.

## التوبة في نظر الروايات

في الفقيه قال رسول الله ﷺ في آخر خطبة خطبها: من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه، ثم قال: إن السنة لكثيرة ومن تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه، ثم قال: وإن الشهر لكثير ومن تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه، ثم قال: وإن اليوم لكثير ومن تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه، ثم قال: وإن الساعة لكثيرة من تاب وقد بلغت نفسه هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - تاب الله عليه.

وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَٰهَ النَّاسِ﴾ (١) قال: ذلك إذا عاين أمر الآخرة.

أقول: الرواية الأولى رواها في الكافي مسنداً عن الصادق عليه السلام، وهي مروية من طرق أهل السنة وفي معناها روايات أخرى.

والرواية الثانية تفسر الآية وتفسر الروايات الواردة في عدم قبول التوبة عند حضور الموت بأن المراد من حضور الموت العلم به ومشاهدة آيات الآخرة ولا توبة عندئذ، وأما الجاهل بالأمر فلا مانع من قبول توبته، ونظيرها بعض ما يأتي من الروايات.

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حنجرته - لم يكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري في التاريخ والحاكم وابن مردويه عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب، قيل وما وقوع الحجاب؟ قال تخرج النفس وهي

مشاركة. وفيه أخرج ابن جرير عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: إن إبليس لما رأى آدم أجوف قال: وعزتك لا أخرج من جوفه ما دام فيه الروح فقال الله تبارك وتعالى: وعزتي لا أحول بينه وبين التوبة ما دام الروح فيه.

وفي الكافي عن علي الأحمسي عن أبي جعفر ﷺ قال: والله ما ينجو من الذنوب إلا من أقرّ بها، قال: وقال أبو جعفر ﷺ: كفى بالندم توبة. وفيه بطريقين عن ابن وهب قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله تعالى فستر عليه فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكه ما كانا يكتبان عليه ثم يوحى الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض: أن اكتمى عليه ذنوبه فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب.

وفيه عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر ﷺ قال: يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب عنها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان. قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال يا محمد بن مسلم أنرى العبد المؤمن يندم على ذنبه فيستغفر الله منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟ قلت: فإن فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر؟ فقال: كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله تعالى عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله.

وفي تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِي لَقَفَّارٍ لِّمَن قَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى﴾، قال: لهذه الآية تفسير يدل على ذلك التفسير أن الله لا يقبل من عبد عملاً إلا لمن لقيه بالوفاء منه بذلك التفسير، وما اشترط فيه على المؤمنين وقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ يعني كل ذنب عمله العبد وإن كان به عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه، وقد قال في ذلك يحكي قول يوسف لإخوته ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله.

أقول: والرواية لا تخلو عن اضطراب في المتن والظاهر أن المراد

بالصدر أن العمل إنما يقبل إذا وفى به العبد ولم ينقضه فالتوبة إنما تقبل إذا كانت زاجرة ناهية عن الذنب ولو حيناً. وقوله: إنما التوبة «إلخ» كلام مستأنف أراد به بيان أن قوله: «بجهالة» قيد توضيحي، وأن في مطلق المعصية جهالة، وقد روى هذا الذيل في المجمع أيضاً عنه رحمته الله <sup>(١)</sup>.



(١) انظر الميزان المجلد ٤ ص ٢٥٨.

## الكبائر والصغائر من نظرة تحليلية

### كلام في الكبائر والصغائر وتكفير السيئات

لا ريب في دلالة قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْسَبُوا كَبِيرَ مَا نُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ مَسِيئَاتِكُمْ﴾ الآية، على انقسام المعاصي إلى كبائر وصغائر سميت في الآية بالسيئات، ونظيرها في الدلالة قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَاذِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾<sup>(١)</sup> الآية، إذ إشفاقهم مما في الكتاب يدل على أن المراد بالصغيرة والكبيرة صغائر الذنوب وكبائرها.

وأما السيئة فهي بحسب ما تعطيه مادة اللفظ وهيئة هي الحادثة أو العمل الذي بحمل المسألة، ولذلك ربما يطلق لفظها على الأمور والمصائب التي يسوء الإنسان وقوعها كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سِتْرَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾<sup>(٢)</sup> الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَسْتَ بِطَارِكٍ﴾<sup>(٣)</sup> الآية، وربما أطلق على نتائج المعاصي وآثارها الخارجية الدنيوية والأخروية كقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾<sup>(٤)</sup> الآية، وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾<sup>(٥)</sup> الآية، وهذا بحسب الحقيقة يرجع إلى المعنى السابق، وربما أطلق على نفس المعصية كقوله تعالى: ﴿وَمَرَدُوا سِتْرَ مَيْتَةٍ نَزَّلَهَا﴾<sup>(٦)</sup> الآية،

(١) سورة الكهف: ٤٩.

(٢) سورة النساء: ٧٩.

(٣) سورة الرعد: ٦.

(٤) سورة التحل: ٣٤.

(٥) سورة الزمر: ٥١.

(٦) سورة الشورى: ٤٠.

والسيئة بمعنى المعصية ربما أطلقت على مطلق المعاصي أعم من الصغائر والكبائر كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ نَحْمِلُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(١)</sup>، إلى غير ذلك من الآيات.

وربما أطلقت على الصغائر خاصة كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية، إذ مع فرض اجتناب الكبائر لا تبقى للسيئات إلا الصغائر.

وبالجملة دلالة الآية على انقسام المعاصي إلى الصغائر والكبائر بحسب القياس الدائر بين المعاصي أنفسها مما لا ينبغي أن يرتاب فيه.

وكذا لا ريب أن الآية في مقام الامتنان، وهي تفرع أسماع المؤمنين بعناية لطيفة إلهية أنهم إن اجتنبوا البعض من المعاصي كفر عنهم البعض الآخر، فليس إغراء على ارتكاب المعاصي الصغار، فإن ذلك لا معنى له لأن الآية تدعو إلى ترك الكبائر بلا شك، وارتكاب الصغيرة من جهة أنها صغيرة لا يعاب بها ويتهاون في أمرها يعود مصداقاً من مصاديق الطغيان والاستهانة بأمر الله سبحانه، وهذا من أكبر الكبائر بل الآية تعد تكفير السيئات من جهة أنها سيئات لا يخلو الإنسان المخلوق على الضعف المبني على الجهالة من ارتكابها بغلبة الجهل والهوى عليه، فمساق هذه الآية مساق الآية الداعية إلى التوبة التي تعد غفران الذنوب كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٢)</sup> الآية، فكما لا يصح أن يقال هناك: إن الآية تغري إلى المعصية بفتح باب التوبة وتطبيب النفوس بذلك فكذا ههنا، بل أمثال هذه الخطابات إحياء للقلوب الآيسة بالرجاء.

ومن هنا يعلم أن الآية لا تمتنع عن معرفة الكبائر بمعنى أن يكون المراد بها اتقاء جميع المعاصي مخافة الوقوع في الكبائر والابتلاء بارتكابها فإن ذلك معنى بعيد عن مساق الآية بل المستفاد من الآية أن المخاطبين هم

(١) سورة الجاثية: ٢١.

(٢) سورة الزمر: ٥٤.

يعرفون الكبائر ويميزون هؤلاء الموبقات من النهي المتعلق بها، ولا أقل من أن يقال: إن الآية تدعو إلى معرفة الكبائر حتى يهتم المكلفون في الاتقاء منها كل الاهتمام من غير تهاون في جنب غيرها فإن ذلك التهاون كما عرفت إحدى الكبائر الموبقة.

وذلك أن الإنسان إذا عرف الكبائر وميزها وشخصها عرف أنها حرمات لا يغمض من هتكها بالتكفير إلا عن ندامة قاطعة وتوبة نصوح ونفس هذا العلم مما يوجب تنبه الإنسان وانصرافه عن ارتكابها.

وأما الشفاعة فإنها وإن كانت حقة إلا أنها لا تنفع من استهان بأمر الله سبحانه واستهزأ بالتوبة والندامة. واقتراف المعصية بالاعتماد على الشفاعة تساهل وتهاون في أمر الله سبحانه وهو من الكبائر الموبقة القاطعة لسبيل الشفاعة قطعاً.

ومن هنا يتضح أن كبر المعصية إنما يعلم من شدة النهي الواقع عنها بإصرار أو تهديد بالعذاب.

ومما تقدم من الكلام يظهر حال كبائر ما قيل في معنى الكبائر، وهي كثيرة، منها ما قيل: إن الكبيرة كل ما أوعده الله عليه في الآخرة عقاباً ووضع له في الدنيا حداً. وفيه أن الإصرار على الصغيرة كبيرة لقول النبي ﷺ: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. رواه الفريقان مع عدم وضع حد فيه شرعاً، وكذا ولاية الكفار وأكل الربا مع أنهما من كبائر ما نهى عنه في القرآن.

ومنها قول بعضهم: إن الكبيرة كل ما أوعده الله عليه بالنار في القرآن، وربما أضاف إليه بعضهم السنة. وفيه أنه لا دليل على انعكاسه كلياً.

ومنها قول بعضهم: إنها كل ما يشعر بالاستهانة بالدين وعدم الاكتراث به قال به إمام الحرمين واستحسنه الرازي. وفيه أنه عنوان الطغيان والاعتداء وهي إحدى الكبائر وهناك ذنوب كبيرة موبقة وإن لم تقترب بهذا العنوان كأكل مال اليتيم وزنا المحارم وقتل النفس المؤمنة من غير حق.

ومنها قول بعضهم: إن الكبيرة ما حرمت لنفسها لا لعارض، وهذا كالمقابل للقول السابق. وفيه أن الطغيان والاستهانة ونحو ذلك من أكبر

الكبائر وهي عناوين طارئة، ويطرونها على معصية وعروضها لها نصير من الكبائر الموبقة.

ومنها قول بعضهم: إن الكبائر ما اشتملت عليه آيات سورة النساء من أول السورة إلى تمام ثلاثين آية، وكأن المراد أن قوله: إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه الآية إشارة إلى المعاصي المبينة في الآيات السابقة عليه كقطيعة الرحم وأكل مال اليتيم والزنا ونحو ذلك. وفيه أنه ينافي إطلاق الآية.

ومنها قول بعضهم (وينسب إلى ابن عباس): كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، ولعله لكون مخالفته تعالى أمراً عظيماً، وفيه أنك قد عرفت أن انقسام المعصية إلى الكبيرة والصغيرة إنما هو بقياس بعضها إلى بعض، وهذا الذي ذكره مبني على قياس حال الإنسان في مخالفته - وهو عبد - إلى الله سبحانه - وهو رب كل شيء - ومن الممكن أن يميل إلى هذا القول بعضهم بتوهم كون الإضافة في قوله تعالى: كبائر ما تنهون عنه بيانية، لكنه فاسد لرجوع معنى الآية حيث إلى قولنا: إن تجنبوا المعاصي جميعاً نكفر عنكم سيئاتكم ولا سينة مع اجتنب المعاصي، وإن أريد تكفير سيئات المؤمنين قبل نزول الآية اعصمت الآية بأشخاص من حضر عند النزول، وهو خلاف ظاهر الآية من العموم، ولو عمت الآية عاد المعنى إلى أنكم إن عزمتم على اجتنب جميع المعاصي واجتنبتموها كفرنا عنكم سيئاتكم السابقة عليه، وهذا أمر نادر شاذ المصداق أو عديمه لا يحمل عليه عموم الآية لأن نوع الإنسان لا يخلو عن السيئة واللمم إلا من عصمه الله بعصمته فافهم ذلك.

ومنها: أن الصغيرة ما نقص عقابه عن ثواب صاحبه، والكبيرة ما يكبر عقابه عن ثوابه، نسب إلى المعتزلة وفيه أن ذلك أمر لا يدل عليه هذه الآية ولا غيرها من آيات القرآن، نعم من الثابت بالقرآن وجود الحبط في بعض المعاصي في الجملة لا في جميعها سواء كان على وفق ما ذكره أو لا على وفقه.

وقالوا أيضاً: يجب تكفير السيئات والصغائر عند اجتنب الكبائر ولا تحسن المؤاخذة عليها، وهذا أيضاً أمر لا تدل الآية عليه البتة.



ومنها: أن الكبير والصغير اعتباران يعرضان لكل معصية، فالمعصية التي يقتربها الإنسان استهانة بأمر الربوبية واستهزاء أو عدم مبالاة به كبيرة، وهي بعينها لو اقترفت من جهة استشاط غضب أو غلبة جبن أو ثورة شهوة كانت صغيرة مغفورة بشرط اجتناب الكبائر.

ولما كانت هذه العناوين الطارئة المذكورة يجمعها العناد والاعتداء على الله أمكن أن يلخص الكلام بأن كل واحدة من المعاصي المنهي عنها في الدين إن أتى بها عناداً واعتداءً فهي كبيرة وإلا فهي صغيرة مغفورة بشرط اجتناب العناد والاعتداء.

قال بعضهم: إن في كل ميسرة وفي كل نهى خاطب الله به كبيرة أو كبائر وصغيرة أو صفائر، وأكبر الكبائر في كل ذنب عدم المبالاة بالنهي والأمر واحترام التكليف، ومنه الإصرار فإن المصر على الذنب لا يكون محترماً ولا مبالياً بالأمر والنهي قاله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَحْتَبِئُوا كُتُبًا مَّا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي الكبائر التي يتجنبونها كل شيء تنهون عنه ﴿تُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي تكفر عنكم صغيرة فلا تؤاخذكم عليه.

وفيه: أن استلزام اقتران كل معصية مقترفة بما يوجب كونها طغياناً واستعلاء على الله سبحانه صيرورتها معصية كبيرة لا يوجب كون الكبير دائراً مدار هذا الاعتبار حتى لا يكون بعض المعاصي كبيرة في نفسها مع عدم عروض شيء من هذه العناوين عليه، فإن زنا المحارم بالنسبة إلى النظر إلى الأجنبية وقتل النفس المحرمة ظلماً بالنسبة إلى الضرب كيرتان عرض لهما عارض من العناوين أم لم يعرض، نعم كلما عرض شيء من هذه العناوين المهلكة اشتد النهي بحسبه وكبرت المعصية وعظم الذنب فما الزنا عن هوى النفس وغلبة الشهوة والجهالة كالزنا بالاستباحة.

على أن هذا المعنى (إن تجتنبوا في كل معصية كبائرنا تكفر عنكم صفائرها) معنى ردي لا يحتمله قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَبِئُوا كُتُبًا مَّا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> الآية، بحسب ما لها من السياق على ما لا يخفى لكل من استأنس قليل استأنس بأساليب الكلام.

ومنها: ما يتراءى من ظاهر كلام الغزالي على ما نقل عنه<sup>(١)</sup> من الجمع بين الأقوال وهو أن بين المعاصي بقياس بعضها إلى بعض كبيرة وصغيرة كزنا المعصنة من المحارم بالنسبة إلى النظر إلى الأجنبية وإن كانت بعض المعاصي يكبر بانطباق بعض العناوين المهلكة الموبقة عليه كالإصرار على الصغائر، فبذلك نصير المعصية كبيرة بعدما لم تكن.

فبهذا يظهر أن المعاصي تنقسم إلى صغيرة وكبيرة بحسب قياس البعض إلى البعض بالنظر إلى نفس العمل وجرم الفعل، ثم هي مع ذلك تنقسم إلى القسمين بالنظر إلى أثر الذنب ووباله في إحباطه للثواب بغلبته عليه أو نقصه منه إذا لم يغلبه فيزول الذنب بزوال مقدار يعادله من الثواب فإن لكل طاعة تأثيراً حسناً في النفس يوجب رفعة مقامها وتخلصها من قذارة البعد وظلمة الجهل كما أن لكل معصية تأثيراً سيئاً فيها يوجب خلاف ذلك من انحطاط محلها وسقوطها في هاوية البعد وظلمة الجهل. فإذا اقترف الإنسان شيئاً من المعاصي وقد هيأ لنفسه شيئاً من النور والصفاء بالطاعة، فلا بد من أن يتصادم ظلمة المعصية ونور الطاعة، فإن غلبت ظلمة المعصية ووبال الذنب نور الطاعة وظهورت عليه أجهطته، وهذه هي المعصية الكبيرة، وإن غلبت الطاعة بمالها من النور والصفاء أزالته ظلمة الجهل وقذارة الذنب يبطلان مقدار يعادل ظلمة الذنب من نور الطاعة، ويبقى الباقي من نورها وصفاتها تتنور وتصفو به النفس، وهذا معنى التحايط، وهو بعينه معنى غفران الذنوب الصغيرة وتكفير السيئات، وهذا النوع من المعاصي هي المعاصي الصغيرة.

وأما تكافؤ السيئة والحسنة بما لهما من العقاب والثواب فهو وإن كان مما يحتمله العقل في بادئ النظر، ولازمه صحة فرض إنسان أعزل لا طاعة له ولا معصية، ولا نور لنفسه ولا ظلمة لكن يبطله قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ إِلَى السَّعِيرِ﴾. انتهى ملخصاً.

وقد رده الرازي بأنه يبتنى على أصول المعتزلة الباطلة عندنا، وشدد النكير على الرازي في المنار قائلاً:

(١) نقله الفخر الرازي في تفسيره عن الغزالي في منتخبات كتاب الأحياء.

وإذا كان هذا (يعني انقسام المعصية إلى الصغيرة والكبيرة في نفسها) صريحاً في القرآن فهل يعقل أن يصح عن ابن عباس إنكاره؟ لا بل روى عبد الرزاق عنه أنه قيل له: هل الكبائر سبع؟ فقال: هي إلى السبعين أقرب؛ وروى ابن جبير أنه قال: هي إلى السبعمائة أقرب، وإنما عزي القول بإنكار تقسيم الذنوب إلى صفائر وكبائر إلى الأشعرية.

وكان القائلين بذلك منهم أرادوا أن يخالفوا به المعتزلة ولو بالتأويل كما يعلم من كلام ابن فورك فإنه صحح كلام الأشعرية وقال: معاصي الله كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها: صغيرة وكبيرة بإضافة<sup>(١)</sup>، وقالت المعتزلة: الذنوب على ضربين: صفائر وكبائر، وهذا ليس بصحيح انتهى، وأول الآية تأويلاً بعيداً.

وهل يؤول الآيات والأحاديث لأجل أن يخالف المعتزلة ولو فيما أصابوا فيه؟ لا بعد ذلك فإن التعصب للمذاهب هو الذي صرف كثيراً من العلماء الأزكياء عن إفادة أنفسهم وأمتهم بفطنتهم، وجعل كتبهم فتنة للمسلمين اشتغلوا بالجدل فيها عن حقيقة الدين، وسترى ما ينقله الرازي عن الغزالي، ويرده لأجل ذلك، وأمين الرازي من الغزالي، وأمين معاوية من علي. انتهى. ويشير في آخر كلامه إلى ما نقلت عن الغزالي والرازي.

وكيف كان فما ذكره الغزالي وإن كان وجيهاً في الجملة لكنه لا يخلو عن خلل من جهات.

الأولى: أن ما ذكره من انقسام المعاصي إلى الصفائر والكبائر بحسب تحايط الثواب والعقاب لا ينطبق دائماً على ما ذكره من الانقسام بحسب نفس المعاصي ومتون الذنوب في أول كلامه فإن غالب المعاصي الكبيرة المسلمة في نفسها يمكن أن يصادف في فاعله ثواباً كبيراً يغلب عليها وكذا يمكن أن تفرض معصية صغيرة تصادف من الثواب الباقي في النفس ما هو أصغر منها وأنقص، وبذلك يختلف الصغيرة والكبيرة بحسب التقسيمين فمن المعاصي ما هي صغيرة على التقسيم الأول كبيرة بحسب التقسيم الثاني،

(١) أي الإضافة بحسب قصود المعاصي المختلفة لا إضافة بعض المعاصي إلى بعضها في نفسها.

ومنها ما هي بالعكس فلا تطابق كلياً بين التقسيمين.

**والثانية:** أن التصادم بين آثار المعاصي والطاعات وإن كان ثابتاً في الجملة لكنه مما لم يثبت كلياً من طريق الظواهر الدينية من الكتاب والسنة أبداً. وأي دليل من طريق الكتاب والسنة يدل على تحقق التزاييل والتحابط بنحو الكلية بين عقاب المعاصي وثواب الطاعات؟

والذي أجرى تفصيل البحث فيه من الحالات الشريفة النورية النفسانية والحالات الأخرى الخسيسة الظلمانية كذلك أيضاً، فإنها وإن كانت تتصادم بحسب الغالب وتزاييل وتتفانى لكن ذلك ليس على وجه كلي دائم بل ربما يثبت كل من الفضيلة والرذيلة في مقامها وتتصالح على البقاء، وتقتسم النفس كأن شيئاً منها للفضيلة خاصة، و شيئاً منها للرذيلة خاصة، فترى الرجل المسلم مثلاً يأكل الربا ولا يلوي عن ابتلاع أموال الناس، ولا يصغي إلى استغاثة المظلوم المستأصل المظلوم، ويجتهد في الصلوات المفروضة، ويبالغ في خضوعه وخشوعه، أو أنه لا يبالي في إهراق الدماء وهناك الأعراض والإفساد في الأرض ويخلص لله أي إخلاص في أمور من الطاعات والقربات، وهذا هو الذي يسميه علماء النفس اليوم بازدواج الشخصية بعد تعددها وتنازعها، وهو أن تتكون الميول المختلفة النفسانية وتثور بعضها على بعض بالتزاحم والتعارض، ولا يزال الإنسان في تعب داخلي من ذلك حتى تستقر الملكتان فتزدوجان وتتصالحان ويغيب كل عند ظهور الأخرى وانتهاضها وإمساكها على فريستها كما عرفت من المثال المذكور آنفاً.

**والثالثة:** أن لازم ما ذكره أن يلغى اعتبار الاجتناب في تكفير السيئات فإن من لا يأتي بالكبائر لا لأنه يكف نفسه عنها مع القدرة والتمايل النفساني عليها بل لعدم قدرته عليها وعدم استطاعته منها فإن سيئاته تنحيط بالطاعات لغلبة ثوابه على القرض على ما له من العقاب وهو تكفير السيئات فلا يبقى لاعتبار اجتناب الكبائر وجه مرضي.

قال الغزالي في الإحياء: اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة كمن يتمكن من امرأة ومن موافقتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد

تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنيئاً أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر الآخرة فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما يمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية، انتهى.

وقال أيضاً في محل آخر: كل ظلمة ارتفعت إلى القلب لا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمنضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحي كل سيئة بحسنة من جنسها لكي تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدرج والتحقيق من التلطف في طريقة المحو، فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو، انتهى كلامه.

وكلامه كما ترى يدل على أن المحيط للسينات هو الاجتناب الذي هو الكف مع أنه غير لازم على هذا القول.

والكلام الجامع الذي يمكن أن يقال في المقام مستظهراً بالآيات الكريمة هو أن الحسنات والسينات متحابطة في الجملة غير أن تأثير كل سيئة في كل حسنة وبالعكس بنحو النقص منه أو إفنائه مما لا دليل عليه، ويدل عليه اعتبار حال الأخلاق والحالات النفسانية التي هي نعم العون في فهم هذه الحقائق القرآنية في باب الثواب والعقاب.

وأما الكبائر والصغائر من المعاصي فظاهر الآية كما عرفت هو أن المعاصي بقياس بعضها إلى بعض كقتل النفس المحترمة ظلماً بالقياس إلى النظر إلى الأجنبية وشرب الخمر بالاستحلال بالقياس إلى شربها بهوى النفس بعضها كبيرة وبعضها صغيرة من غير ظهور ارتباط ذلك بمسألة الإحباط والتكفير بالكلية.

ثم إن الآية ظاهرة في أن الله سبحانه يعد لمن اجتنب الكبائر أن يكفر

عنه سيئاته جميعاً ما تقدم منها وما تأخر على ما هو ظاهر إطلاق الآية؛ ومن المعلوم أن الظاهر من هذا الاجتناب أن يأتي كل مؤمن بما يمكنه من اجتناب الكبائر وما يصدق في مورده الاجتناب عن الكبائر لا أن يجتنب كل كبيرة بالكف عنها فإن الملتفت أدنى التفات إلى سلسلة الكبائر لا يرتاب في أنه لا يتحقق في الوجود من يميل إلى جميعها ويقدر عليها عامة أو ينذر ندرة ملحقة بالعدم، وتنزيل الآية هذه المنزلة لا يرتضيها الطبع المستقيم.

فالمراد أن من اجتنب ما يقدر عليه من الكبائر وتوق نفسه إليه منها وهي الكبائر التي يمكنه أن يجتنبها كفر الله سيئاته سواء جانسها أو لم يجانسها.

وأما أن هذا التكفير للاجتناب بأن يكون الاجتناب في نفسه طاعة مكفرة للسيئات كما أن التوبة كذلك أو أن الإنسان إذا لم يقترف الكبائر خلي ما بينه وبين الصغائر والطاعات الحسنة فالحسنات يكفرن سيئاته، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّرَّاتِ﴾<sup>(١)</sup> ظاهر الآية ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية، أن للاجتناب دخلاً في التكفير، وإلا كان الأنسب بيان أن الطاعات يكفرن السيئات كما في قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ الآية، أو أن الله سبحانه يعفو الصغائر مهما كانت من غير حاجة إلى سرد الكلام جملة شرطية.

والدليل على كبر المعصية هو شدة النهي الوارد عنها أو الإبعاد عليها بالنار أو ما يقرب من ذلك سواء كان ذلك في كتاب أو سنة من غير دليل على الحصر.

### روايات أهل البيت عليهم السلام في الكبائر والصغائر

في الكافي عن الصادق عليه السلام: الكبائر، التي أوجب الله عليها النار.

وفي الفقيه وتفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في الكبائر قال: كل ما أوعده الله عليها النار.

(١) سورة هود: ١١٤.

وفي ثواب الأعمال عن الصادق عليه السلام: من اجتنب ما أوعد الله عليه النار إذا كان مؤمناً كفر الله عنه سيئاته ويدخله مدخلاً كريماً، والكبائر السبع الموجبات: قتل النفس الحرام، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والتعرب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف.

أقول: والروايات من طرق الشيعة وأهل السنة في عدد الكبائر كثيرة سيمر بك بعضها، وقد عد الشرك بالله فيما نذكر منها إحدى الكبائر السبع إلا في هذه الرواية ولعله عليه السلام أخرجه من بينها لكونه أكبر الكبائر ويشير إليه قوله: إذا كان مؤمناً.

وفي المجمع: روى عبد العظيم بن عبد الله الحسيني عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه علي بن موسى الرضا عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فلما سلم وجلس تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَالْفَوْسِقِ﴾ ثم أمسك، فقال أبو عبد الله ما أسكتك؟ قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله، قال: نعم يا عبيد الله أكبر الكبائر الشرك بالله لقول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وقال: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ وبعده اليأس من روح الله لأن الله يقول: ﴿لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ثم الأمن من مكر الله لأن الله يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ومنها عقوق الوالدين لأن الله تعالى جعل العاق جباراً شقياً في قوله ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، ومنها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأنه يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ الآية، وقذف المحصنات لأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمِنُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ لَأُعَذِّبُنَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وأكل مال اليتيم لقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية، والفرار من الزحف لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ بِبُيُوتِهِمْ دُبْرُهُ إِلَّا مَنْ تَحَرَّفَ لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِخَطْبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبَشَ الْأَعْيُنُ﴾، وأكل الربا لأن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَحَبَّطُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ﴾ ويقول: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، والسحر لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي

الْآخِرَةِ مِمَّنْ خَلَقَ؛ وَالزُّنَا لَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْلَكًا﴾ وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ لَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ الْآيَةِ؛ وَالغُلُولِ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَمَنْعِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ لَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوَّىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُرُهُمْ﴾ الْآيَةِ؛ وَشَهَادَةِ الزُّورِ وَكُتْمَانِ الشَّهَادَةِ لَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَصْحَحْهَا فَلَهُ مِائَةُ قَبْلَةٍ﴾؛ وَشَرْبِ الْخَمْرِ لَأَنَّهُ اللَّهُ عَدَلَ بِهَا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ؛ وَتَرْكِ الصَّلَاةِ مُتَعَمِّدًا وَشَيْئًا مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى لَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِءَ مِنْ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ؛ وَنَقْضِ الْعَهْدِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ لَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَالْهُمُومُ الدَّارِ﴾.

قال: فخرج عمرو بن عبيد له صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه، ونازعكم في الفصل والعلم  
أقول: وقد روي من طريق أهل النسبة ما يقرب منه عن ابن عباس،  
ويتبين بالرواية أمران:

الأول: أن الكبيرة من المعاصي ما اشتد النهي عنها إما بالإصرار والبلوغ في النهي أو بالإيعاد بالنار، من الكتاب أو السنة كما يظهر من موارد استدلاله عليه السلام، ومنه يظهر معنى ما مر في حديث الكافي: أن الكبيرة ما أوجب الله عليها النار، وما مر في حديث الفقيه وتفسير العياشي: أن الكبيرة ما أوعده الله عليها النار، فالمراد بإيجابها وإيعادها أعم من التصريح والتلويح في كلام الله أو حديث النبي ﷺ.

وأظن أن ما نقل في ذلك عن ابن عباس أيضاً كذلك فمراده بالإيعاد بالنار أعم من التصريح والتلويح في قرآن أو حديث، ويشهد بذلك ما في تفسير الطبري عن ابن عباس قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، ويتبين بذلك أن ما نقل عنه أيضاً في تفسير الطبري وغيره: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ليس خلافاً في معنى الكبيرة وإنما هو تكبير للمعاصي جميعاً بقياس حقارة الإنسان إلى عظمة ربه كما مر.



والثاني: أن حصر المعاصي الكبيرة في بعض ما تقدم وما يأتي من الروايات، أو في ثمانية، أو في تسع كما في بعض الروايات النبوية المروية من طرق السنة، أو في عشرين كما في هذه الرواية أو في سبعين كما في روايات أخرى كل ذلك باعتبار اختلاف مراتب الكبر في المعصية كما يدل عليه ما في الرواية من قوله عند تعداد الكبائر: وأكبر الكبائر الشرك بالله.

وفي الدر المنثور أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وفيه أخرج ابن حبان وابن مردويه عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات، وبعث به مع عمرو بن حزم.

قال: وكان في الكتاب أن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة إشراك بالله وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والقرار يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم.

وفيه أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أنس: سمعت النبي ﷺ يقول: ألا إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية<sup>(١)</sup>.

(١) انظر الميزان المجلد الرابع ص ٣٣١.

## في الإيمان وازدياده

الإيمان بالشيء ليس مجرد العلم الحاصل به كما يستفاد من أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِيهَا رَاٰتِبَتُهَا أَنتُمُهَا﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ<sup>(٤)</sup>﴾، فالآيات - كما ترى - تثبت الارتداد والكفر والجحود والضلال مع العلم.

فمجرد العلم بالشيء والحزم بكونه حقاً لا يكفي في حصول الإيمان واتصاف من حصل له به، بل لا بد من الالتزام بمقتضاه وعقد القلب على مؤداه بحيث يترتب عليه آثاره العملية ولو في الجملة، فالذي حصل له العلم بأن الله تعالى إله لا إله غيره فالتزم بمقتضاه وهو عبوديته وعبادته وحده كان مؤمناً ولو علم به ولم يلتزم فلم يأت بشيء من الأعمال المظهرة للعبودية كان عالماً وليس بمؤمن.

ومن هنا يظهر بطلان ما قيل: إن الإيمان هو مجرد العلم والتصديق وذلك لما مر أن العلم ربما يجامع الكفر.

ومن هنا يظهر أيضاً بطلان ما قيل: إن الإيمان هو العمل، وذلك لأن العمل يجامع النفاق فالمنافق له عمل وربما كان ممن ظهر له الحق ظهوراً علمياً ولا إيمان له على أي حال.

(١) سورة محمد: ٢٥.

(٢) سورة محمد: ٣٢.

(٣) سورة النمل: ١٤.

(٤) سورة الجاثية: ٢٣.

وإذ كان الإيمان هو العلم بالشئ مع الالتزام به بحيث يترتب عليه آثاره العملية، وكل من العلم والالتزام معاً يزداد وينقص ويشتد ويضعف كان الإيمان المؤلف منهما قابلاً للزيادة والنقصان والشدة والضعف باختلاف المراتب وتفاوت الدرجات من الضروريات التي لا يشك فيها قط.

هذا ما ذهب إليه الأكثر وهو الحق ويدل عليه من النقل قوله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ وغيره من الآيات، وما ورد من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام الدالة على أن الإيمان ذو مراتب.

وذهب جمع منهم أبو حنيفة وإمام الحرمين وغيرهما إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، واحتجوا عليه بأن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم والقطع وهو مما لا يتصور فيه الزيادة والنقصان فالمصدق إذا ضُم إلى تصديقه الطاعات أو ضُم إليه المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً.

وأولوا ما دل من الآيات على قبوله الزيادة والنقصان بأن الإيمان عرض لا يبقى بشخصه بل يتجدد الأمثال فهو بحسب انطباقه على الزمان بأمثاله المتجددة يزيد وينقص كوقوعه لبي مثلاً على التوالي من غير فترة متخللة وفي غيره بفترات قليلة أو كثيرة فالمراد بزيادة الإيمان توالي أجزاء الإيمان من غير فترة أصلاً أو بفترات قليلة.

وأيضاً للإيمان كثرة بكثرة ما يؤمن به، وشرائع الدين لما كانت تنزل تدريجاً والمؤمنون يؤمنون بما ينزل منها وكان يزيد عدد الأحكام حيناً بعد حين كان إيمانهم أيضاً يزيد تدريجاً، وبالجمله المراد بزيادة الإيمان كثرة عدداً.

وهو بين الضعف، أما الحجة ففيها أولاً: أن قولهم: الإيمان اسم للتصديق الجازم ممنوع بل هو اسم للتصديق الجازم الذي معه الالتزام كما تقدم بيانه اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتصديق العلم مع الالتزام.

وثانياً: أن قولهم: إن هذا التصديق لا يختلف بالزيادة والنقصان دعوى بلا دليل بل مصادرة على المطلوب وبنائه على كون الإيمان عرضاً وبقاء الأعراض على نحو تجدد الأمثال لا ينفعهم شيئاً فإن من الإيمان ما لا تحركه العواصف ومنه ما يزول بأدنى سبب يعترض وأوهن شبهة تطرأ، وهذا

مما لا يعلل بتجدد الأمثال وقلة الفترات وكثرتها بل لا بد من استناده إلى قوة الإيمان وضعفه سواء قلنا بتجدد الأمثال أم لا .

مضافاً إلى بطلان تجدد الأمثال على ما بين في محله .

وقولهم : إن المصدق إذا ضَمَّ إليه الطاعات أو ضَمَّ إليه المعاصي لم يتغير حاله أصلاً ممنوع بقوة الإيمان بمزاولة الطاعات وضعفها بارتكاب المعاصي مما لا ينبغي الارتياح فيه ، وقوة الأثر وضعفه كاشفة عن قوة مبدأ الأثر وضعفه ، قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾<sup>(١)</sup> ، وقال : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءِ أَن كُذِّبُوا بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

وأما ما ذكره من التأويل فأول التأويلين يوجب كون من لم يستكمل الإيمان وهو الذي في قلبه فترات خالية من أجزاء الإيمان على ما ذكره مؤمناً وكافراً حقيقة وهذا مما لا يساعد ولا يشعر به شيء من كلامه تعالى .

وأما قوله تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ، فهو إلى الدلالة على كون الإيمان مما يزيد وينقص أقرب منه إلى الدلالة على نفيه فإن مدلوله أنهم مؤمنون في حال أنهم مشركون فإيمانهم إيمان بالنسبة إلى الشرك المحض وشرك بالنسبة إلى الإيمان المحض ، وهذا معنى قبول الإيمان للزيادة والنقصان .

وثاني التأويلين يفيد أن الزيادة في الإيمان وكثرته إنما هي بكثرة ما تعلق به وهو الأحكام والشرائع المنزلة من عند الله فهي صفة للإيمان بحال متعلقه والسبب في اتصافه بها هو متعلقه ، ولو كانت هذه الزيادة هي المرادة من قوله : ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ كان الأنسب أن تجعل زيادة الإيمان في الآية غاية لتشريع الأحكام الكثيرة وإنزالها لا لإنزال السكينة في قلوب المؤمنين هذا .

(١) سورة فاطر : ١٠ .

(٢) سورة الروم : ١٠ .

(٣) سورة يوسف : ١٠٦ .

وحمل بعضهم زيادة الإيمان في الآية على زيادة أثره وهو النور المشرق منه على القلب.

وفيه أن زيادة الأثر وقوته فرع زيادة المؤثر وقوته فلا معنى لاختصاص أحد الأمرين المتساويين من جميع الجهات بأثر يزيد على أثر الآخر.

وذكر بعضهم أن الإيمان الذي هو مدخول مع في قوله: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ الإيمان الفطري والإيمان المذكور قبله هو الإيمان الاستدلالي، والمعنى: ليزدادوا إيماناً استدلالياً على إيمانهم الفطري.

وفيه أنه دعوى من غير دليل يدل عليه. على أن الإيمان الفطري أيضاً استدلالى فمتعلق العلم والإيمان على أي حال أمر نظري لا بديهي.

وقال بعضهم كالإمام الرازي: إن النزاع في قبول الإيمان للزيادة والنقص وعدم قبوله نزاع لفظي فمراد النافين عدم قبول أصل الإيمان وهو التصديق ذلك وهو كذلك لعدم قبوله الزيادة والنقصان، ومراد المثبتين قبول ما به كمال الإيمان وهو الأعمال للزيادة والنقصان وهو كذلك بلا شك.

وفيه أولاً: أن فيه خلطاً بين التصديق والإيمان فالإيمان تصديق مع الالتزام وليس مجرد التصديق فقط كما تقدم بيانه.

وثانياً: أن نسبة نفي الزيادة في أصل الإيمان إلى المثبتين غير صحيحة فهم إنما يشبتون الزيادة في أصل الإيمان، ويرون أن كلاً من العلم والالتزام المؤلف منهما الإيمان يقبل القوة والضعف.

وثالثاً: أن إدخال الأعمال في محل النزاع غير صحيح لأن النزاع في شيء غير النزاع في أثره الذي به كماله ولا نزاع لأحد في أن الأعمال والطاعات تقبل العد وتقل وتكثر بحسب تكرار الواحد<sup>(١)</sup>.

(١) انظر الميزان المجلد ١٨ ص ٢٦٢.

## في معنى تأثير الإيمان

الدين هو السّنة الاجتماعية التي يسير بها الإنسان في حياته الدنيوية الاجتماعية، والسّنن الاجتماعية متعلقة بالعمل مبنياً على أساس الاعتقاد في حقيقة الكون والإنسان الذي هو جزء من أجزائه، ومن هنا ما نرى أن السّنن الاجتماعية تختلف باختلاف الاعتقادات فيما ذكر.

فمن يثبت للكون ربّاً يتدبّر منه وسيعود إليه وللإنسان حياة باقية لا تبطل بموت ولا فناء يسير في الحياة سيرة يراعي في الأعمال الجارية فيها سعادة الحياة الباقية والتّعم في الدار الآخرة الخالدة.

ومن يثبت له إلهاً أو آلهة تدبّر الأمر بالرضا والسخط من غير معاد إليه يعيش عيشة نظمها على أساس التقرب من الآلهة وإرضائها للفوز بأمّنة الحياة والظفر بما يشتهي من نعم الدنيا.

ومن لا يهتم بأمر الربوبية ولا يرى للإنسان حياة خالدة كالمادين ومن يحذو حذوهم يبنّي سّنة الحياة والقوانين الموضوعّة الجارية في مجتمعه على أساس التمتع من الحياة الدنيا المحدودة بالموت.

فالدين سّنة عملية مبنية على الاعتقاد في أمر الكون والإنسان بما أنه جزء من أجزائه، وليس هذا الاعتقاد هو العلم النظري المتعلق بالكون والإنسان فإن العلم النظري لا يستتبع بنفسه عملاً وإن توقف عليه العمل بل هو العلم بوجوب الجري على ما يقتضيه هذا النظر وإن شئت فقل: الحكم بوجوب اتباع المعلوم النظري والالتزام به، وهو العلم العملي كقولنا: يجب أن يعبد الإنسان الإله تعالى ويراعي في أعماله ما يسعد به في الدنيا والآخرة معاً.

ومعلوم أن الدعوة الدينية متعلقة بالدين الذي هو السّنة العملية المبنية

على الاعتقاد، فالإيمان الذي يتعلق به الدعوة هو الالتزام بما يقتضيه الاعتقاد الحق في الله سبحانه ورسله واليوم الآخر وما جاءت به رسله وهو علم عملي.

والعلوم العملية تشتد وتضعف حسب قوة الدواعي وضعفها فلنا لسنا نعمل عملاً قط إلا طمعاً في خير أو نفع أو خوفاً من شر أو ضرر، وربما رأينا وجوب فعل لداع يدعو إليه ثم صرفنا عنه داع آخر أقوى منه وأثر، كمن يرى وجوب أكل الغذاء لرفع ما به من جوع فيصرفه عن ذلك علمه بأنه مضر له منافع لصحته، فبالحقيقة يقيد الداعي المانع بما معه من العلم إطلاق العلم الذي مع الداعي الممنوع كأنه يقول مثلاً: إن التغذية لرفع الجوع ليس يجب مطلقاً بل إنما يجب إذا لم يكن مضرّاً بالبدن مضاداً لصحته.

ومن هنا يظهر أن الإيمان بالله إنما يؤثر أثره من الأعمال الصالحة والصفات الجميلة النفسانية كالخشية والخشوع والإخلاص ونحوها إذا لم يغلبه الدواعي الباطلة والتويلات الشيطانية، وبعبارة أخرى إذا لم يكن إيماناً مقيداً بحال دون حال كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْذُ اللَّهُ عَلَنَ حَرْفًا﴾ (١).

الحمد لله الذي هدانا لهذا

(١) سورة الحج: ٦١.

(٢) انظر الميزان المجلد ١٥ ص ٧.

## النفاق في صدر الإسلام

يهتم القرآن بأمر المنافقين اهتماماً بالغاً ويكرّ عليهم كرة عنيفة بذكر مساوي أخلاقهم وأكاذيبهم وخدائهم ودسائسهم والفتن التي أقاموها على النبي ﷺ وعلى المسلمين، وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر والمنافقون والتحريم.

وقد أوعدهم الله في كلامه أشد الوعيد ففي الدنيا بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وعلى أبصارهم إذهاب نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون وفي الآخرة يجعلهم في الدرك الأسفل من النار.

وليس ذلك إلا لشدة الخصائص التي امتازت الإسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع دسائسهم فلم ينل المشركون واليهود والنصارى من دين الله ما نالوه، وناهيك فيهم قوله تعالى لنبيه ﷺ بشير إليهم: ﴿مُرُّ الْقُدُّوسِ فَاسْأَلْهُمْ﴾ (١).

وقد ظهر آثار دسائسهم ومكائدهم أوائل ما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فورد ذكرهم في سورة البقرة وقد نزلت - على ما قيل - على رأس ستة أشهر من الهجرة ثم في السور الأخرى النازلة بعد بالإشارة إلى أمور من دسائسهم وفنون من مكائدهم كانسلاهم من الجند الإسلامي يوم أحد وهم ثلثهم تقريباً، وعقدتهم الحلف مع اليهود واستنهاضهم على المسلمين وبنائهم مسجد الضرار وإشاعتهم حديث الإفك، وإثارتهم الفتنة في قصة السقاية وقصة العقبة إلى غير ذلك مما تشير إليه الآيات حتى بلغ أمرهم في الإفساد

(١) سورة المنافقون: ٤.



وتقليب الأمور على النبي ﷺ إلى حيث هددهم الله بمثل قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحْصِيُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا \* مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقد استفاضت الأخبار وتكاثرت في أن عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين وهم الذين كانوا يقلبون الأمور على النبي ﷺ ويتربصون به الدوائر وكانوا معروفين عند المؤمنين يقربون من ثلث القوم وهم الذين خذلوا المؤمنين يوم أحد فانمازوا منهم ورجعوا إلى المدينة قائلين لو نعلم قتلاً لاتبعناكم وهم عبد الله بن أبي وأصحابه.

ومن هنا ذكر بعضهم أن حركة النفاق بدأت بدخول الإسلام المدينة واستمرت إلى قرب وفاة النبي ﷺ.

هذا ما ذكره جمع منهم لكن التدبر في حوادث زمن النبي ﷺ والإمعان في الفتن الواقعة بعد الرحلة والاعتناء بطبيعة الاجتماع الفعالة يقضي عليه بالنظر:

أما أولاً: فلا دليل مقنعاً على عدم تسرب النفاق في متبعي النبي ﷺ المؤمنين بمكة قبل الهجرة، وقول القائل إن النبي ﷺ والمسلمين بمكة قبل الهجرة لم يكونوا من القوة ونفوذ الأمر وسعة الطول بحيث يهابهم الناس ويتقوهم أو يرجوا منهم خيراً حتى يظهروا لهم الإيمان ظاهراً ويتقربوا منهم بالإسلام، وهم مضطهدون مفتنون معذبون بأيدي صناديد قريش ومشركي مكة المعادين لهم المعاندين للحق بخلاف حال النبي ﷺ بالمدينة بعد الهجرة فإنه ﷺ هاجر إليها وقد كسب أنصاراً من الأوس والخزرج واستوثق من أقوياء رجالهم أن يدفعوا عنه كما يدفعون عن أنفسهم وأهليهم، وقد دخل الإسلام في بيوت عامتهم فكان مستظهِراً بهم على العدة القليلة الذين لم يؤمنوا به ويقوا على شركهم ولم يكن يسمعهم أن يغلنوا مخالفتهم ويظهروا شركهم فتوقوا الشر بإظهار الإسلام فأمنوا به ظاهراً وهم على كفرهم باطناً فدسوا الدسائس ومكروا ما مكروا.

(١) سورة الأحزاب: ٦١.

غير تام، فما القدرة والقوة المخالفة المهيبة ورجاء الخير بالفعل والاستدرار المعجل علة منحصرة للنفاق حتى يحكم بانتفاء النفاق لانتفائها فكثيراً ما نجد في المجتمعات رجالاً يتبعون كل داع ويتجمعون إلى كل ناعق ولا يعبأون بمخالفة القوى المخالفة القاهرة الطاحنة، ويعيشون على خطر مصرين على ذلك رجاء أن يوفقوا يوماً لإجراء مرامهم ويتحكموا على الناس باستقلالهم بإدارة رضى المجتمع والعلو في الأرض وقد كان النبي ﷺ يذكر في دعوته لقومه أن لو آمنوا به واتبعوه كانوا ملوك الأرض.

فمن الجائز عقلاً أن يكون بعض من آمن به يتبعه في ظاهر دينه طمعاً في البلوغ بذلك إلى أمنيته وهي التقدم والرئاسة والاستعلاء، والأثر المترتب على هذا النوع من النفاق ليس هو تغليب الأمور وتربص الدوائر على الإسلام والمسلمين وإفساد المجتمع الديني بل تقويته بما أمكن وتفديته بالمال والجاء لينتظم بذلك الأمور وينتهي لاستفادته منه واستدراجه لنفع شخصه. نعم يمكن مثل هذا المنافق بالمخالفة والمضادة فيما إذا لاح من الدين مثلاً ما يخالف أمانة تقدمه وتسلطه إرجاعاً للأمر إلى سبيل ينتهي إلى غرضه الفاسد.

وأيضاً من الممكن أن يكون بعض المسلمين يرتاب في دينه فيرتد  
ويكنم ارتداده كما مرّت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ  
كَفَرُوا﴾ الآية، وكما يظهر من لحن مثل قوله تعالى: ﴿بَنَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن يَرْتَدَّ  
مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقُرْءٍ<sup>(١)</sup>

وأيضاً الذين آمنوا من مشركي مكة يوم الفتح لا يؤمن أكثرهم أن لا يؤمنوا إيمان صدق وإخلاص من البديهي عند من تدبر في حوادث سني الدعوة أن كفار مكة وما والاها وخاصة صناديد قريش ما كانوا ليؤمنوا بالنبي ﷺ لولا سواد جنود غشيتهم وبريق سيوف مسلطة فوق رؤوسهم يوم الفتح وكيف يمكن مع ذلك القضاء بأنه حدث في قلوبهم والظرف هذا الظرف نور الإيمان وفي نفوسهم الإخلاص واليقين فآمنوا بالله طوعاً عن آخرهم ولم يدب فيهم ديب النفاق أصلاً .

(١) سورة المائدة: ٥٤.

وأما ثانياً: فلأن استمرار النفاق إلى قرب رحلة النبي ﷺ وانقطاعه عند ذلك ممنوع نعم انقطع الخبر عن المنافقين بالرحلة وانعقاد الخلافة وانمحي أثرهم فلم يظهر منهم ما كان يظهر من الآثار المضادة والمكائد والدسائس المشؤومة.

فهل كان ذلك لأن المنافقين وفقوا للإسلام وأخلصوا الإيمان عن آخرهم برحلة النبي ﷺ وتأثرت قلوبهم من موته ما لم يتأثر بحياته؟ أو أنهم صالحوا أولياء الحكومة الإسلامية على ترك المزاحمة بأن يسمح لهم ما فيه أمنيتهم مصالحه سرية بعد الرحلة أو قبلها؟ أو أنه وقع هناك تصالح اتفاقي بينهم وبين المسلمين فوردوا جميعاً في مشرعة سواء فارتفع التصاك والتصادم؟

ولعل التدبير الكافي في حوادث آخر عهد النبي ﷺ والفتن الواقعة بعد رحلته يهدي إلى الحصول على جواب شافٍ لهذه الأسئلة.

والذي أوردناه في هذا البحث إشارة إجمالية إلى ميل البحث<sup>(١)</sup>.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله

(١) انظر الميزان المجلد ١٩ ص ٣٠٠.

## نظرة فلسفية إلى الحب الإلهي

قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وفي التعبير بلفظ يحبونهم دلالة على أن المراد بالأنداد ليس هو الأصنام فقط بل يشمل الملائكة، وأفراداً من الإنسان الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله تعالى بل يعم كل مطاع من دون الله من غير أن يأذن الله في إطاعته كما يشهد به ما في ذيل الآيات من قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾<sup>(١)</sup>، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَنْبِيَائِهِمْ زُفَرًا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup>، وفي الآية دليل على أن الحب يتعلق بالله تعالى حقيقة خلافاً لمن قال: إن الحب - وهو وصف شهواني - يتعلق بالأجسام والجسمانيات، ولا يتعلق به سبحانه حقيقة وأن معنى ما ورد من الحب له الإطاعة بالانتماء بالأمر والانتفاء عن النهي تجوزاً كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٤)</sup>.

والآية حجة عليهم فإن قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ يدل على أن حبه تعالى يقبل الاشتداد، وهو في المؤمنين أشد منه في المتخذين لله أنداداً، ولو كان المراد بالحب هو الإطاعة مجازاً كان المعنى والذين آمنوا أطوع لله ولم يستقم معنى التفضيل لأن طاعة غيرهم ليست بطاعة عند الله سبحانه فالمراد بالحب معناه الحقيقي.

ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ

(١) سورة البقرة: ١٦٦.

(٢) سورة آل عمران: ٦٤.

(٣) سورة التوبة: ٣١.

(٤) سورة آل عمران: ٣١.

وَأَزْوَاجَكُمْ وَعَشِيرَتَكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِخْتَرَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ<sup>(١)</sup>، فإنه ظاهر في أن الحب المتعلق بالله والحب المتعلق برسوله والحب المتعلق بالآباء والأبناء والأموال وغيرها جميعاً من سنخ واحد لمكان قوله أحب إليكم، وأفضل التفضيل يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه في أصل المعنى واختلافهما من حيث الزيادة والنقصان.

ثم إن الآية ذم المتخذين للأنداد بقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ثم مدح المؤمنين بأنهم أشد حباً لله سبحانه فدل التقابل بين الفريقين على أن ذمهم إنما هو لتوزيعهم المحبة الإلهية بين الله وبين الأنداد الذين اتخذوهم أنداداً. وهذا وإن كان بظاهره يمكن أن يستشعر منه أنهم لو وضعوا له سبحانه سهماً أكثر لم يذموا على ذلك لكن ذيل الآية ينفي ذلك فإن قوله: ﴿إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿إِذْ نَبَرَأُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الْذِينِ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَغْنَاهُمْ حَسْرَتِ عَلَيْهِمْ﴾ يشهد بأن الذم لم يتوجه إلى الحب من حيث أنه حب بل من جهة لازمه الذي هو الاتباع وكما في هذا الاتباع منهم لهم لزعمهم أن لهم قوة يتقون بها لجلب المحبوب أو طمع مكروه عن أنفسهم فتركوا بذلك اتباع الحق من أصله أو في بعض الأمور وليس من اتبع الله في بعض أمره دون بعض بمتبع له وحينئذ يندفع الاستشعار المذكور، ويظهر أن هذا الحب يجب أن لا يكون لله فيه سهم وإلا فهو الشرك، واشتداد هذا الحب ملازم لانحصار التبعية من أمر الله، ولذلك مدح المؤمنين بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

وإذا كان هذا المدح والذم متعلقاً بالحب من جهة أثره الذي هو الاتباع فلو كان الحب للغير بتعقيب إطاعة الله تعالى في أمره ونهيه لكون الغير يدعو إلى طاعته تعالى - ليس له شأن دون ذلك - لم يتوجه إليه ذم البتة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِخْتَرَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فقرر لرسوله حباً كما قرره لنفسه لأن حبه لله حب الله تعالى فإن أثره وهو

الاتباع عين اتباع الله تعالى فإن الله سبحانه هو الداعي إلى إطاعة رسوله والأمر باتباعه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وكذلك اتباع كل من يهتدي إلى الله باتباعه كعالم يهدي بعلمه أو آية تعين بدلالته وقرآن يقرب بقراءته ونحو ذلك فإنها كلها محبوبة بحب الله واتباعها طاعة تعد مقربة إليه.

فقد بان بهذا البيان أن من أحب شيئاً من دون الله ابتغاء قوة فيه فاتبعه في تسببه إلى حاجة ينالها منه أو اتبعه بإطاعته في شيء لم يأمر الله به فقد اتخذ من دون الله أنداداً وسير بهم الله أعمالهم حشرات عليهم، وأن المؤمنين هم الذين لا يحبون إلا الله ولا يبتغون قوة إلا من عند الله ولا يتبعون غير ما هو من أمر الله ونهيه فأولئك هم المخلصون لله ديناً.

وبان أيضاً أن حب من حبه من حب الله واتباعه اتباع الله كالنبي وآله والعلماء بالله، وكتاب الله وسنة نبيه وكل ما يذكر الله بوجه إخلاص لله ليس من الشرك المذموم في شيء، والتقرب بحبه واتباعه تقرب إلى الله، وتعظيمه بما يعد تعظيماً من تقوى الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾<sup>(٢)</sup> والشعائر هي العلامات الدالة، ولم يقيد بشيء مثل الصفا والمروة وغير ذلك، فكل ما هو من شعائر الله وآياته وعلاماته المذكورة له فتعظيمه من تقوى الله ويشمله جميع الآيات الأمرة بالتقوى.

نعم لا يخفى لذي مسكة أن إعطاء الاستقلال لهذه الشعائر والآيات في قبال الله واعتقاد أنها تملك لنفسها أو غيرها نفعاً أو ضرراً أو موتاً أو حياة أو نشوراً إخراج لها عن كونها شعائر وآيات وإدخال لها في حظيرة الألوهية وشرك بالله العظيم، والعباد بالله تعالى<sup>(٣)</sup> من المعاني الوجدانية التي عندنا معنى نسميه بالحب كما في موارد حب الغذاء وحب النساء وحب المال وحب العجاة وحب العلم، هذه مصاديق خمسة لا نشك في وجودها

(١) سورة النساء: ٦٤.

(٢) سورة الحج: ٣٢.

(٣) انظر الميزان المجلد ١ ص ٤٠٤.

فيتا، ولا نشك أنا نستعمل لفظ الحب فيها بمعنى واحد على سبيل الاشتراك المعنوي دون اللفظي، ولا شك أن المصاديق مختلفة، فهل هو اختلاف نوعي أو غير ذلك؟

إذا دققنا النظر في حب ما هو غذاء كالفاكهة مثلاً وجدناه محبوباً عندنا لتعلقه بفعل القوة الغذائية، ولولا فعل هذه القوة وما يحوزه الإنسان بها من الاستكمال البدني لم يكن محبوباً ولا تحقق حب، فالحب بحسب الحقيقة بين القوة الغذائية وبين فعلها، وما تجده عند الفعل من اللذة، ولستنا نعني باللذة لذة الذائقة فإنها من خواص الغاذية وليست نفسها، بل الرضى الخاص الذي تجده القوة بفعلها، ثم إذا اختبرنا حال حب النساء وجدنا الحب فيها يتعلق بالحقيقة بالوقاع، وتعلقه بهن ثانياً وبالتبع، كما كان حب الغذاء متعلقاً بنفس الغذاء ثانياً وبالتبع، والوقاع أثر القوة المودعة في الحيوان، كما كان التغذي كذلك أثراً لقوة فيه، ومن هنا يعلم أن هذين الحبين يرجعان إلى مرجع واحد وهو تعلق وجودي بين هاتين القوتين وبين فعلهما أي كمالهما الفعلي.

ومن المحتمل حينئذ أن يكون الحب هو التعلق الخاص بهذين الموردين ولا يوجد في غير مورديهما لكن الاختبار بالآثار يدفع ذلك، فإن لهذا التعلق المسمى حباً أثراً في المتعلق (اسم فاعل) وهو حركة القوة وانجذابها نحو الفعل إذا فقدته ونحرجها عن تركه إذا وجدته، وهاتان الخاصتان أو الخاصة الواحدة نجدتها موجودة في مورد جميع القوى الإدراكية التي لنا وأفعالها وإن قوتنا الباصرة والسامعة والحافظة والمتخيلة وغيرها من القوى والمحواسن الظاهرية والباطنية جميعها - سواء كانت فاعلة أو منقولة - على هذه الصفة فجميعها تحب فعلها وتنجذب إليها وليس إلا أن تكون أفعالها كمالات لها يتم بها نقصها وحاجتها الطبيعية، وعند ذلك يتضح الأمر في حب المال وحب الجاه وحب العلم فإن الإنسان يستكمل نوع استكمال بالمال والجاه والعلم.

ومن هنا يستنتج أن الحب تعلق خاص وانجذاب مخصوص شعوري بين الإنسان وبين كماله، وقد أفاد التجارب الدقيق بالآثار والخواص أنه يوجد في الحيوان غير الإنسان، وقد تبين أن ذلك لكون المحب فاعلاً أو

منفعلاً عما يحبه من الفعل والأثر ومتعلقاً ببعده بكل ما يتعلق به كما مرّ في حديث الأكل والفاكهة، وغير الحيوان أيضاً كالحيوان إذا كان هناك استكمال أو إفاضة لكمال مع الشعور.

ومن جهة أخرى لما كان الحب تعلقاً وجودياً بين المحب والمحبوب كان رابطة قائمة بينهما فلو كان المعلول الذي يتعلق به حب علته موجوداً ذا شعور وجد حب علته في نفسه لو كان له نفس واستقلال جوهرى.

ويستنتج من جميع ما مرّ: أولاً أن الحب تعلق وجودي وانجذاب خاص بين العلة المكملة أو ما يشبهها وبين المعلول المستكمل أو ما يشبهه، ومن هنا كنا نحب أفعالنا لاستكمالنا بها ونحب ما يتعلق به أفعالنا كغذاء نتغذى به، أو زوج نتمتع بها، أو مال نتصرف فيه، أو جاه نستفيد به، أو منعم ينعم علينا، أو معلم يعلمنا، أو هاد يهدينا أو ناصر ينصرنا، أو متعلم يتعلم منا، أو خادم يخدمنا، أو أي مطيع يطيعنا وينقاد لنا، وهذه أقسام من الحب بعضها طبعي وبعضها خيالي وبعضها عقلي.

وثانياً: أن الحب ذو مراتب مختلفة من الشدة والضعف فإنه رابطة وجودية - والوجود مشكك في مراتبه - ومن المعلوم أن التعلق الوجودي بين العلة التامة ومعلولها ليس كالتعلق الكائن بين العلة الناقصة ومعلولاتها، وأن الكمال الذي يتعلق بواسطته الحب مختلف من حيث كونه ضرورياً أو غير ضروري، ومن حيث كونه مادياً كالغذاء أو غير مادي كالعلم، وبه يظهر بطلان القول باختصاصه بالماديات حتى ذكر بعضهم أن أصله حب الغذاء، وغيره ينحل إليه، وذكر آخرون أن الأصل في بابه حب الوقاع، وغيره راجع إليه.

وثالثاً: أن الله سبحانه أهل للحب بأي جهة فرضت فإنه تعالى في نفسه موجود ذو كمال غير متناه وأي كمال فرض غيره فهو متناه، والمتناهي متعلق الوجود بغير المتناهي وهذا حب ذاتي مستحيل الارتفاع، وهو تعالى خالق لنا منعم علينا بنعم غير متناهية العدة والمدة فنحبه كما نحب كل منعم لإنعامه.

ورابعاً: أن الحب لما كانت رابطة وجودية - والروابط الوجودية غير



خارجة الوجود عن وجود موضوعاتها ومن تنزلاته - أنتج ذلك أن كل شيء فهو يحب ذاته، وقد مرَّ أنه يحب ما يتعلق بما يحبه فيحب آثار وجوده، ومن هنا يظهر أن الله سبحانه يحب خلقه لحب ذاته، ويحب خلقه لقبولهم إنعامه عليهم، ويحب خلقه لقبولهم هدايته.

وخامساً: أن لزوم الشعور والعلم في مورد الحب إنما هو بحسب المصداق وإلا فالتعلق الوجودي الذي هو حقيقة الحب لا يتوقف عليه من حيث هو، ومن هنا يظهر أن القوى والعباد، الطبيعية غير الشاعرة لها حب بآثارها وأفعالها.

وسادساً: يستتج مما مرَّ أن الحب حقيقة سارية في الموجودات<sup>(١)</sup>.



(١) انظر الميزان المجلد ١ ص ٤٠٩.

## ١ - الذكر الإلهي في القرآن الكريم

لما امتن الله تعالى على النبي ﷺ والمسلمين، بإرسال النبي الكريم منهم إليهم نعمة لا تقدر بقدر ومنحة على منحة - وهو ذكر منه لهم - إذ لم ينسهم في هدايتهم إلى مستقيم الصراط، وسوقهم إلى أقصى الكمال، وزيادة على ذلك، وجعل القبلة، التي فيها كمال دينهم، وتوحيد عبادتهم، وتقويم فضيلتهم الدينية والاجتماعية فرع على ذلك دعوتهم إلى ذكره وشكره، ليذكروهم بنعمته على ذكرهم إياه بعبوديته وطاعته، ويزيدهم على شكرهم لنعمته وعدم كفرانهم، وقد قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا وَشَاكًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال سبحانه: ﴿لَنْ مَحْكُورَتُهُ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، والآيتان جميعاً تاذن لثبات آيات القبلة من سورة البقرة.

ثم إن الذكر ربما قابل العقل كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلَ قَلْبُهُ عَن ذِكْرِنَا﴾<sup>(٣)</sup>. وهي انتفاء العلم بالعلم، مع وجود أصل العلم، فالذكر خلافة، وهو العلم بالعلم، وربما قابل النسيان وهو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن، فالذكر خلافة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الآية. وهو حينئذ كالنسيان معنى وذو آثار وخواص تتفرع عليه، ولذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان في موارد تتحقق فيها آثارهما وإن لم تتحقق أنفسهما، فإنك إذا لم تنصر صديقك - وأنت تعلم حاجته إلى نصرك - فقد نسيت، والحال أنك تذكره، وكذلك الذكر.

والظاهر أن إطلاق الذكر على الذكر اللفظي من هذا القبيل، فإن

(١) سورة الكهف: ٢٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

(٣) سورة الكهف: ٢٨.

التكلم عن الشيء من آثار ذكره قلباً، قال تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾<sup>(١)</sup>، ونظائره كثيرة، ولو كان الذكر اللفظي أيضاً ذكراً حقيقة فهو من مراتب الذكر، لأنه مقصور عليه ومنحصر فيه، وبالجمل: الذكر له مراتب كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ ظُلُمَاتِ الْقُلُوبِ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾<sup>(٤)</sup>، فالشدة إنما ينصف به المعنى دون اللفظ، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا قَسَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾<sup>(٥)</sup>. وذيل هذه الآية تدل على الأمر برجاء ما هو أعلى منزلة مما هو فيه، فيؤول المعنى إلى أنك إذا تنزلت من مرتبة من ذكره إلى مرتبة هي دونها، وهو النسيان، فاذكر ربك وارج بذلك ما هو أقرب طريقاً وأعلى منزلة، فينتج أن الذكر القلبي ذو مراتب في نفسه، وبذلك يتبين صحة قول القائل: إن الذكر حضور المعنى عند النفس، فإن الحضور ذو مراتب.

ولو كان لقوله تعالى، فاذكر وتوهم - وهو فعل متعلق بباء المتكلم حقيقة من دون تجوز، أفاد ذلك أن الإنسان كمنحاً آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا الذي هو حصول صورة المعلوم ومفهومه عند العالم، إذ كلما فرض من هذا القليل فهو تجديد وتوصيف للمعلوم من العالم، وقد تقدست ساحتها سبحانه عن توصيف الواصفين، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾<sup>(٦)</sup> إلا عباد الله المخلصين<sup>(٧)</sup>، وقال: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾<sup>(٨)</sup>.

(١) سورة الكهف: ٨٣.

(٢) سورة الرعد: ٢٨.

(٣) سورة الأعراف: ٢٠٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٠٠.

(٥) سورة الكهف: ٢٤.

(٦) سورة الصافات: ١٦٠.

(٧) سورة طه: ١١٠.

## ٢ - الذكر في نظر الروايات

تكاثرت الأخبار في فضل الذكر من طرق العامة والخاصة، فقد روي بطرق مختلفة أن ذكر الله حسن على كل حال.

وفي عدة الداعي قال: وروي أن رسول الله ﷺ قد خرج على أصحابه، فقال: ارتعوا في رياض الجنة، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحب أن يعلم منزله عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد الله من نفسه، واعلموا أن خير أعمالكم عند مليكم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى، فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني، وقال تعالى: فاذكروني أذكركم بنعمتي، اذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعيم والإحسان والراحة والرضوان.

وفي المحاسن ودعوات الراوندي عن الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: من شغل بذكري عن مسألتي، أعطيه أفضل ما أعطي من سألني.

وفي المعاني عن الحسين البزاز قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ألا أحدثك بأشد ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى، قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كل موطن، أما إنني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن، إذا هجمت على طاعته أو معصيته.

أقول: وهذا المعنى مروي بطرق كثيرة عن النبي وأهل بيته عليه السلام، وفي بعضها وهو قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١﴾ الآية .

وفي عدة الداعي عن النبي ﷺ ، قال : قال سبحانه : إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي ، نقلت شهوته في مسألتني ومناجاتي ، فإذا كان عبدي كذلك وأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن يسهو ، أولئك أوليائي حقاً ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال .

وفي المحاسن عن الصادق عليه السلام قال : قال الله تعالى : ابن آدم اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي ، ابن آدم اذكرني في خلاء أذكرك في خلاء ، اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملكك وقال : ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس إلا ذكره الله في ملأ من الملائكة .

أقول : وقد روي هذا المعنى بطرق كثيرة في كتب الغريبين .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني وابن موديه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود : قال : قال رسول الله ﷺ ، من أعطى أربعاً أعطى أربعاً ، وتفسير ذلك في كتاب الله من أعطى الذكر ذكره الله ، لأن الله يقول : ﴿ اذْكُرُونِي أَذْكَرْكُمْ ﴾ ومن أعطى الدعاء أعطى الإجابة ، لأن الله يقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ومن أعطى الشكر أعطى الزيادة ، لأن الله يقول : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ومن أعطى الاستغفار أعطى المغفرة لأن الله يقول : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (١) .

(١) انظر الميزان المجلد ١ ص ٣٣٤ .

## في معنى السكينة

والسكينة من السكون خلاف الحركة وتستعمل في سكون القلب وهو استقرار الإنسان وعدم اضطراب باطنه في تصميم إرادته على ما هو حال الإنسان الحكيم (من الحكمة باصطلاح فن الأخلاق) صاحب العزيمة في أفعاله، والله سبحانه جعلها من خواص الإيمان في مرتبة كماله، وعدّها من مواهب السامية.

بيان ذلك: أن الإنسان بغيريته الفطرية يصدر أفعاله عن التعقل، وهو تنظيم مقدمات عقلية مشتملة على مصالح الأفعال، وتأثيرها في سعادته في حياته والخير المطلوب في اجتماعه، ثم استنتاج ما ينبغي أن يفعله وما ينبغي أن يتركه.

وهذا العمل الفكري إذا جرى الإنسان على أسلوب فطرته ولم يقصد إلا ما ينفعه نفعاً حقيقياً في سعادته يجري على قرار من النفس وسكون من الفكر من غير اضطراب وتزلزل، وأما إذا أخلد الإنسان في حياته إلى الأرض واتبع الهوى اختلط عليه الأمر، وداخل الخيال بتزييناته وتنميقاته في أفكاره وعزائمه فأورث ذلك انحرافه عن سنن الصواب تارة، وتردده واضطرابه في عزمه وتصميم إرادته وإقدامه على شذائد الأمور وهزاهمها أخرى.

والمؤمن بإيمانه بالله تعالى مستند إلى سناد لا يتحرك وركن لا ينهدم. بانياً أموره على معارف حقة لا تقبل الشك والريب، مقدماً في أعماله عن تكليف إلهي لا يرتاب فيها، ليس إليه من الأمر شيء حتى يخاف فوته، أو يحزن لفقده، أو يضطرب في تشخيص خيره من شره.

وأما غير المؤمن فلا ولي له يتولى أمره، بل خيره وشره يرجعان إليه نفسه فهو واقع في ظلمات هذه الأفكار التي تهجم عليه من كل جانب من

طريق الهوى والخيال والإحساسات المشوومة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَائِلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَزْوَاجَهُمْ﴾<sup>(٥)</sup>، وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾<sup>(٦)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَسْخُدِ الشَّيْطَانَ وَلِيَائِهِ مِمن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۖ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۗ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾<sup>(٧)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِنَّ أَوْلِيَائِلِللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٨)</sup>، والآيات كما ترى تضع كل خوف وحزن واضطراب وغرور في جانب الكفر، وما يقابلها من الصفات في جانب الإيمان.

وقد بين الأمر أوضح من ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيًّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فَمِنَ النَّاسِ كَمَثَلِ الْفُلْمُنِيِّ لَمَّا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾<sup>(٩)</sup>، فدل على أن خبط الكافر في مشيه لكونه واقعاً في الظلمات لا يبصر شيئاً، لكن المؤمن له نور إلهي يبصر به طريقه، ويدرك به خيره وشره، وذلك لأن الله أفاض عليه حياة جديدة على حياته التي يشاركه فيها الكافر، وتلك الحياة هي المستتبعة لهذا النور الذي يستنير به، وفي معناه قوله

(١) سورة آل عمران: ٦٨.

(٢) سورة محمد: ١١.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٧.

(٤) سورة الأعراف: ٢٧.

(٥) سورة آل عمران: ١٧٥.

(٦) سورة البقرة: ٢٦٨.

(٧) سورة النساء: ١٢٢.

(٨) سورة يونس: ٦٢.

(٩) سورة الأنعام: ١٢٢.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا رَسُولَهُ يُوَفِّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ \* أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾<sup>(٢)</sup>، فأفاد أن هذه الحياة إنما هي بروح منه، وتلازم لزوم الإيمان واستقراره في القلب فهؤلاء المؤمنون يؤيدون بروح من الله نستتبع استقرار الإيمان في قلوبهم، والحياة الجديدة في قلوبهم، والنور المضيء قدامهم.

وهذه الآية كما ترى قريبة الانطباق على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ فَعَقَّ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>، فالسكينة في هذه الآية تنطبق على الروح في الآية السابقة وازدياد الإيمان على الإيمان في هذه على كتابة الإيمان في تلك، ويؤيد هذا التطبيق قوله تعالى في ذيل الآية ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن القرآن يطلق الجند على مثل الملائكة والروح.

ويقرب من هذه الآية سياقاً قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحْسَنَ لَهَا وَأَهْلُهَا﴾<sup>(٤)</sup>، وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ مَكِينَتَهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾<sup>(٥)</sup>.

وقد ظهر مما مر أنه يمكن أن يستفاد من كلامه تعالى أن السكينة روح إلهي أو تستلزم روحاً إلهياً من أمر الله تعالى يوجب سكينة القلب واستقرار النفس وربط الجأش، ومن المعلوم أن ذلك لا يوجب خروج الكلام عن معناه الظاهر واستعمال السكينة التي هي بمعنى سكون القلب وعدم اضطرابه في الروح الإلهي<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الحديد: ٢٨.

(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

(٣) سورة الفتح: ٤.

(٤) انظر الميزان المجلد ١ ص ٢٩٣.

(٥) سورة الفتح: ٢٦.

(٦) سورة التوبة: ٤٠.



## المجازاة والعفو

١ - ما معنى الجزاء؟ لا يخلو أي مجتمع من المجتمعات من تكاليف اجتماعية على أجزائه أن يحترموها فلا هم للمجتمع إلا أن يوافق بين أعمال الأفراد ويقرب بعضها من بعض، ويربط جانباً منها بجانب حتى تأتلف وتجتمع وترفع بآثارها ونتائجها حوائج الأفراد بمقدار ما يستحقه كل واحد بعمله وسعيه. وهذه التكاليف لما كانت متعلقة بأمور اختيارية يسع الإنسان أخذها وتركها، وهي بعينها لا تتم إلا مع سلب ما لحرية الإنسان في إرادته وعمله لم يمتنع أن يتخلف عنها أو عن بعضها الإنسان المتسائل بطبعه إلى الاسترسال وإطلاق الحرية.

والنتيجة إلى هذا النقص في التكاليف والقصور في بني القوانين هو الذي بعث الإنسان الاجتماعي على أن يتمم نقصها ويحكم فتورها بأمر آخر، وهو أن يضم إلى مخالفتها والتخلف عنها أموراً يكرهها الإنسان المكلف فيدعوه ذلك إلى طاعة التكليف الذي يكلف به حذراً من أن يحل به ما يكرهه ويتضرر به.

وهذا هو جزاء السيئة، وهو حق للمجتمع أو لولي الأمر على المتخلف العاصي، وله نظير في جانب طاعة التكليف فمن الممكن أن يوضع للمطيع الممثل بإزاء عمله بالتكليف أمر يؤثره ويحبه ليكون ذلك داعياً يدعوه إلى إتيان الواجب أو المطلوب مطلقاً من التكليف، وهو حق للمكلف المطيع على المجتمع أو لولي الأمر، وهذا هو جزاء الحسنة، وربما يسمى جزاء السيئة عقاباً وجزاء الحسنة ثواباً.

وعلى هذه الوتيرة يجري حكم الشريعة الإلهية؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ

أَحْسِنُوا الْحَسَنَ ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ (٢)  
وقال: ﴿وَحَزَقْنَا سَيِّئَةً مِّثْلَهَا﴾ (٣).

وللعقاب والثواب عرض عريض آخذاً من الاستكراه والاستحسان والذم والمدح إلى آخر ما يتعلق به القدرة من الشر والخير، ويرتبطان في ذلك بعوامل مختلفة من خصوصيات الفعل والفاعل وولي التكليف ومقدار الضرر والنفع العائدين إلى المجتمع ولعله يجمع الجميع أن العمل كلما زاد الاهتمام بأمره زاد عقاباً في صورة المعصية وثواباً في صورة الطاعة.

ويعتبر بين العمل وبين جزائه - كيف كان - نوع من المماثلة والمساواة ولو تقريباً، وعلى ذلك يجري كلامه تعالى أيضاً كما هو ظاهر أمثال قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَمْكُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾ (٤) وأوضح منه قوله تعالى وقد حكاه عن صحف إبراهيم وموسى عليه السلام: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى \* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى \* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ (٥).

وهذا فيما شرعه الله في أمر الخصائص أظهر، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ لِمَنْ قُتِلَ بِالْحَقِّ وَالْعَمْدِ بِالْعَمْدِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ﴾ (٦) وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مِمَّنْ أَعَدَّكُمْ عَلَيْهِ يَمْثِلُ مَا أَعَدَّكُمْ عَلَيْكُمْ وَأَنْقَضُوا اللَّهَ﴾ (٧).

ولازم هذه المماثلة والمساواة أن يعود العقاب أو الثواب إلى نفس العامل بمثل ما عمل بمعنى أنه إذا عصى حكماً اجتماعياً مثلاً فإنما تمتع لنفسه بما يضر المجتمع أي بما يفسد تمتعاً من تمتعات المجتمع فينقص من

(١) سورة يونس: ٢٦.

(٢) سورة يونس: ٢٧.

(٣) سورة الشورى: ٤٠.

(٤) سورة النجم: ٣١.

(٥) سورة النجم: ٤١.

(٦) سورة البقرة: ١٧٨.

(٧) سورة البقرة: ١٩٤.

تمتعاته في نفسه ما يعادل ذلك من نفسه أو بدنه أو ماله أو جاهه أو نحو ذلك مما يعود بوجه إليه .

وهذا هو الذي أومأنا إليه في البحث عن معنى الاستعباد أن المجتمع أو من يلي أمره يملك من المجرم نفسه أو شيئاً من شؤون نفسه يعادل الجرم الذي اجترمه ونقيصة الضرر الذي أوقعه على المجتمع فيعاقب بذلك أي يتصرف المجتمع أو ولي الأمر استناداً إلى هذا الملك - وهو الحق - في حياة المجرم أو شأن من شؤون حياته، ويسلب حريته في ذلك .

فلو قتل نفساً مثلاً بغير نفس أو فساد في الأرض في المجتمع الإسلامي ملك ولي الأمر من المجرم نفسه حيث نقصهم نفساً محترمة، وحده الذي هو القتل تصرف في نفسه عن الملك الذي ملكه، ولو سرق ما يبلغ ربع دينار من حرز فقد أضر بالمجتمع بهتك ستر من أستار الأمن العام الذي أسدته يد الشريعة وحفظته يد الأمانة، وحدها الذي هو القطع ليس حقيقته إلا أن ولي الأمر ملك من التصارق بإزاء ما أتى به شيئاً من شؤون حياته وهو الشأن الذي تشتمل عليه اليد فيتصرف فيه بسلب ما له من الحرية ووسيلتها من هذه الجهة، وقس على ذلك أنواع الجزاء في الشرائع والسنن المختلفة .

فيتبين من هنا أن الإجماع والمعصية الاجتماعية يستجلب نوعاً من الرق والعبودية، ولذلك كان العبد أظهر مصاديق المواخضة والعقاب قال تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ﴾<sup>(١)</sup> .

ولهذا المعنى مظاهر متفرقة في سائر الشرائع والسنن المختلفة قال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿إِذْ جَعَلَ السَّقَابَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ لِيَأْخُذَهُ إِلَيْهِ: ﴿قَالُوا لِمَا جَرَّؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ \* قَالُوا جَرَّؤُهُ مِنْ وَجَدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَّؤُهُ كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ \* قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ أَسْخَرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَذَبَ يُوْسُفُ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ \* قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ

(١) سورة المائدة: ١١٨ .

لَوْ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يُبَيِّهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ \* قَالُوا يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا  
مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ \* قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا  
عِنْدَهُ إِفَّا إِذَا تَلَّيْنَاهُ <sup>(١)</sup>.

وربما كان يؤخذ القاتل أسيراً مملوكاً، وربما كان يفدي بواحدة من  
نسائه وحرمة كبنته وأخته إلى غير ذلك، وسنة الفدية بالتزويج كانت مرسومة  
إلى هذه الأيام بين القبائل والعشائر في نواحينا لأن الازدواج يعد عندهم  
نوعاً من الاستقرار والإسارة للنساء.

ومن هنا ما ربما يعد المطيع عبداً للمطاع لأنه بإطاعته يتبع إرادته إرادة  
المطاع فهو مملوكه المحروم من حرية الإرادة قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَأْخُذْ بِالنَّفْسِ  
يَتَّبِعْ مَا دَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشُّعْرَانَ إِنَّهُمْ لَكُذَّبُونَ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* وَأَنْ أَعْبُدُونِي <sup>(٢)</sup>﴾  
وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ مَرْثَةً <sup>(٣)</sup>﴾

وبالعكس من تملك المجتمع أو ولي الأمر المجرم المعاقب يملك  
المطيع الثواب من المجتمع أو ولي الأمر ما يوازن طاعته من الثواب فإن  
المجتمع أو الولي نقص من المكلف المطيع بواسطة التكليف شيئاً من حريته  
الموهوبة فعليه أن يتممه كما نقص.

وهذا الذي ذكرناه هو السر في ما اشتهر: أن الوفاء بالوعد واجب  
دون الوعيد؛ وذلك أن مضمون الوعد في ظرف المولوية والعبودية هو  
الثواب على الطاعة كما أن مضمون الوعيد هو العقاب على المعصية،  
والثواب لما كان من حق المطيع على ولي الأمر وفي ذمته وجب عليه تأديته  
وتفريغ ذمته منه بخلاف العقاب فإنه من حق ولي الأمر على المكلف  
المجرم، وليس من الواجب أن يتصرف الإنسان في ملكه ويستفيد من حقه  
إن كان له ذلك، وللکلام تنمة.

(١) سورة يوسف: ٧٩.

(٢) سورة يس: ٦١.

(٣) سورة الجاثية: ٢٣.

٢ - العفو والمغفرة: استنتجنا من البحث السابق جواز ترك المجازاة على المعصية بخلاف الطاعة، وهو حكم فطري في الجملة مبني على أن العقاب حق للمعصي على العاصي، وليس من الواجب إعمال الحق دائماً.

غير أنه كما لا يجب إعمال حق العقاب دائماً كذلك لا يجوز تركه دائماً وإلا لغي القضاء الفطري بثبوت الحق، ولا معنى لثبوت شيء لا أثر له ولا في وقت من الأوقات على أن إلغاء حق العقاب من رأسه هدم للقوانين الموضوعية الحافظة لبنية الاجتماع وفي هدمها هدم الاجتماع بلا ريب.

فالحكم - وهو جواز العفو عن الذنب - ثابت في الجملة، والقضية مهمة فإن كان هناك سبب مسوغ بحسب الحكمة للعفو جاز العفو وإلا وجبت المجازاة احتراماً للقوانين الحافظة لبنية المجتمع وسعادة الإنسان، وإليه الإشارة بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأَن تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾<sup>(١)</sup>.

ويوجد في القرآن الكريم من أسباب المغفرة مما تمضي به الحكمة الإلهية مبيان كليان:

أحدهما: توبة العبد إلى الله سبحانه أعم من رجوعه من الكفر إلى الإيمان أو رجوعه من المعصية إلى الطاعة قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَأَنبِئُوا إِنِّي رَتِّبْتُ لَكُمْ وَأَسْلَمْتُوْا لَمْ يَنْ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ \* وَأَنبِئُوا أَنَّهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ يَنْ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، وهذه هي التوبة من المعصية إلى الطاعة، ولم ينف فيه نفع الشفاعة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ

(١) سورة المائدة: ١١٨.

(٢) سورة الزمر: ٥٥.

يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا<sup>(١)</sup>.

وثانيهما: الشفاعة يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شِئَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المتعرضة لأمر الشفاعة.

ويوجد في القرآن الكريم موارد متفرقة يذكر فيها العفو من غير ذكر سببه وإن كان التدبر فيها يهدي إلى إجمال ما روعي فيها من المصلحة وهي مصلحة الدين كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَفْتُمْ أَنْ تُفِيمُوا بَيْنَ يَدَيِ فَعُولِكُمْ مَدْفَعَتْ فَأَذَلَّ لَكُمْ تَقَعُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٥)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَحَبِيبُوا أَلَا تَكُونُ فِتْنَةً فَاصْمُوا وَاصْمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَاصْمُوا حَكِيمٌ فِتْنَةً﴾<sup>(٦)</sup>، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مِمَّا هُمْ مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا أَلْفَى وَلَدَنَّهُمْ وَلِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَسْكِرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٧)</sup>، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَجَرَاءُ مِثْلِ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بَلَغَ الْكُتُبُ أَوْ كَثَرَتْ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾<sup>(٨)</sup>.

(١) سورة النساء: ١٨.

(٢) سورة الزخرف: ٨٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٢.

(٤) سورة المجادلة: ١٣.

(٥) سورة التوبة: ١١٧.

(٦) سورة المائدة: ٧١.

(٧) سورة المجادلة: ٣.

(٨) سورة المائدة: ٩٥.

فهذه موارد متنوعة من العفو الإلهي .

وليس من قبيل ما تقدم قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَكَ﴾<sup>(١)</sup> فإنه دعاء نظير قولنا : غفر الله لك لم فعلت كذا وكذا ، ونظيره على الخلاف قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ \* فَقِيلَ كَيْفَ تَدْرُكُ﴾<sup>(٢)</sup> وليس من ذاك القبيل أيضاً قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا \* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾<sup>(٣)</sup> ، ويدل على ذلك جعل المغفرة غاية متفرعة على فتحه تعالى مكة لنبيه ولا رابطة بين مغفرة الذنب بمعنى الإثم وبين الفتح .

٣ - للعفو مراتب : لما كان العفو والمغفرة يتعلق بالذنب الذي يستتبع نوعاً من المجازاة والعقاب ، وللمجزاء كما عرفت - عرض عريض ومراتب مختلفة متشعبة أتبعه العفو في اختلاف المراتب حسب اختلافه ، وليس الاختلاف الواقع في نفس الذنب أعني التبعة السيئة التي يستتبعها العمل ؛ فالاختلاف فيها مما لا سبيل إلى إنكاره ، والجزاء سواء كان عقاباً أو ثواباً إنما يوزن بوزنها .

فمما لا محيص عنه في بحثنا هذا هو البحث عن الذنب واختلاف مراتبه ، والتأمل فيما يهدي إليه العقل الفطري فإن البحث وإن كان قرآنياً يراد به الحصول على ما يراه الكتاب الإلهي في هذه الحقائق غير أنه تعالى على ما بين في كلامه يكلمنا على قدر عقولنا وبالموازين الفطرية التي نزن بها الأشياء في مرحلتي النظر والعمل . وقد استمد تعالى في موارد من بياناته بالعقل والفكر الإنساني ، وأيد به مقاصد كلامه فقال تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وما في معناه .

والذي يفيد الاعتبار الصحيح هو أن أول ما يتعلق به ويحترمه المجتمع الإنساني هو الأحكام العملية والسنن المحترمة التي تحفظ بالعمل بها والمداومة عليها مقاصده الإنسانية وتهديه إلى سعادته في الحياة ، ثم

(١) سورة التوبة : ٤٣ .

(٢) سورة المدثر : ١٩ .

(٣) سورة الفتح : ٢ .

تضع أحكاماً جزائية يجازى على طيفها المتخلف العاصي عن القوانين الاجتماعية ويثاب المطيع الممثل.

وفي هذه المرحلة لا يسمى باسم الذنب إلا التخلف عن متون القوانين العملية، وتحاذي الذنوب لا محالة في عددها مواد الأحكام الاجتماعية، وهذا هو المغرور المركوز في أذهاننا معاشر المسلمين أيضاً من معنى لفظ الذنب والألفاظ التي تقارنه في المعنى كالسيئة والمعصية والإثم والخطيئة والحبوب والقسق ونحوها.

لكن الأمر لا يقف على هذا الحد فإن الأحكام العملية إذا عمل بها وروقت وتحفظ عليها ساق المجتمع إلى أخلاق وأوصاف مناسبة لها ملائمة لمقاصد المجتمع التي هي غاية اجتماعهم، وهذه الأخلاق هي التي يسميها المجتمع بالفضائل الإنسانية ويحرص ويحرص عليها، وتقابلها الرذائل.

وهي وإن كانت مختلفة باختلاف السنن والمقاصد في المجتمعات إلا أن أصل إنتاج الأحكام الاجتماعية لها مما لا سبيل إلى سده وإعفاؤها عنه.

وهذه الأخلاق الفاضلة وإن كانت أوصافاً روحية لا ضامن لإجرائها في مقام العمل في المجتمعات، وكانت غير اختيارية بلا واسطة لكونها ملكات لكنها لكونها في تحققها تتبع تكرر العمل بالأحكام المقررة في المجتمع أو تكرر التخلف عن العمل كانت نفس العمل بالأحكام ضامنة لإجرائها، وتعد اختيارية باختبارية مقدمتها وهي تكرر العمل، وتتصور في مواردنا أوامر عقلية متعلقة بالأخلاق الفاضلة كالشجاعة والعفة والعدالة، ونواهي عقلية تردع عن الأخلاق الرذيلة كالجبن والتهور والخمود والشره والظلم، وكذا يتصور لها عقاب وثواب يسميان بالعقاب والثواب العقليين كالمدح والذم.

وبالجملة تتحقق بذلك مرتبة من مراتب الذنب فوق المرتبة السابق ذكرها، وهي مرتبة التخلف عن الأحكام الخلقية والأوامر العقلية المتعلقة بها.

ولم تعد هذه الأوامر العقلية أوامر إلا من جهة التلازم بين الأعمال الواجبة التي تسوق إليها وبينها، فهناك حاكم يحكم بالوجوب ويأمر به وهو



العقل الإنساني ونظيره القول في تسمية النواهي العقلية نواهي، وهذا دأبنا في جميع موارد التلازم فإذا فرضنا العمل بأحد المتلازمين لا نلبث دون أن نأمر بإتيان الآخر ووجوبه، ونرى التخلف عن ذلك عصياناً لهذا الأمر العقلي، وذنباً يستحق به نوع من المؤاخذة.

ويظهر من هنا أمر آخر وهو أن هذه الفضائل لما كانت مشتملة على واجبات لا محيص عن التلبس بها - ومثله اشتغال الرذائل على المحرمات - وعلى أمور مندوبة مستحبة هي كالزينة والهيئة الجميلة فيها - وهي الآداب الحسنة التي تتعلق بها أوامر عقلية استحسنانية إلا أنها إذا فرضت ظرفاً لأحد منا كان ما يلزمها من الآداب وهي مندوبة في نفسها - مأسوراً به عقلاً أمراً إيجابياً قضاء لحق الظرفية المفروضة، مثال ذلك أن البدوي العائش عيشة العشائر البدوية لما كان ظرف حياته بعيداً من المستوى المتوسط في الحياة الحضرية لا يؤاخذ إلا بالضروريات من أحكام المجتمع والسنن العامة التي يناله عقله وفهمه، وربما أتى بالوفيق من الأعمال أو الركيك من الأقوال فيغضب عنه الحضري معتذراً بقصور الفهم وبعد الدار من السواد الأعظم الذي تكرر مشاهدة الرسوم والآداب فيه أحسن معلم للناس القاطنين فيه.

ثم المتوسط من الثائق الحضريين لا يؤاخذ بما يؤاخذ به الأحاد النوادر من المجتمع الذين هم أهل الفهم اللطيف والآداب الظريف، ولا عذر فيما يقع من المتوسط من الناس من ترك دقائق الآداب وطرائف القول والفعل إلا أن فهمه على قدر ما يأتي به، لا يشعر من لوازم الآداب بأزيد مما يأتي به وظرفه هو ظرفه.

وما يأتي به مما لا ينبغي هو مما يؤاخذ به الأوحديون من الرجال فربما يؤاخذون بلحن خفي في كلام أو بتبطؤ يسير في حركة أو بتفويت آن غير محسوس في سكون أو التفات أو غمض عين ونحو ذلك فيعد ذلك كله ذنباً منهم، وليس من الذنب بمعنى مخالفة المواد القانونية دينية كانت أو دنيوية، وقد اشتهر بينهم أن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وكلما دق المسلك ولطف المقام ظهرت هنالك خفايا من الذنوب كانت قبل تحقق هذا الظرف مغفولاً عنها لا يحس بها الإنسان المكلف بالتكاليف، ولا يؤاخذ بها ولي المؤاخذة والمحاسبة.

وينتهي ذلك - فيما يعطيه البحث الدقيق - إلى الأحكام الناشئة في ظرفي الحب والبغض فترى عين البعض - وخاصة في حال الغضب - عامة الأعمال الحسنة سيئة مذمومة، ويرى المحب إذا تاه في الغرام واستغرق في الوله أدنى غفلة قلبية عن محبوبه ذنباً عظيماً وإن اهتم بعمل الجوارح بتمام أركانه، وليس إلا أنه يرى أن قيمة أعماله في سبيل الحب على قدر توجه نفسه وانجذاب قلبه إلى محبوبه فإذا انقطع عنه بغفلة قلبية فقد أعرض عن المحبوب وانقطع عن ذكره وأبطل طهارة قلبه بذلك.

حتى أن الاشتغال بضروريات الحياة من أكل وشرب ونحوهما يعد عنده من الإجمام والعصيان نظراً إلى أن أصل الفعل وإن كان من الضروري الذي يضطر إليه الإنسان لكن كل واحد من هذه الأفعال الاضطرارية من حيث أصله اختياري في نفسه، والاشتغال به اشتغال بغير المحبوب وإعراض عنه اختياراً وهو من الذنب، ولذلك نرى أهل الوله والغرام وكذا المحزون الكئيب ومن في عداد هؤلاء يستنكفون عن الاشتغال بأكل أو شرب أو نحوهما.

وعلى نحو من هذا القليل ينبغي أن يحمل ما ربما يروى عنه ﷺ من قوله: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله كل يوم سبعين مرة». وعليه يمكن أن يحمل بوجه قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْكَ وَمَسِيحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾<sup>(٢)</sup>.

وعليه يحمل ما حكى تعالى عن عدة من أنبيائه الكرام كقول نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً﴾<sup>(٣)</sup> وقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾<sup>(٤)</sup> وقول موسى لنفسه وأخيه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾<sup>(٥)</sup>، وما حكى عن النبي ﷺ: ﴿سَوْفَنَا

(١) سورة المؤمن: ٥٥.

(٢) سورة النصر: ٢.

(٣) سورة نوح: ٢٨.

(٤) سورة إبراهيم: ٤١.

(٥) سورة الأعراف: ١٥١.

وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ<sup>(١)</sup>.

فإن الأنبياء ﷺ مع عصمتهم لا يتأتى أن تصدر عنهم المعصية، ويقتربوا الذنب بمعنى مخالفة مادة من المواد الدينية التي هم المرسلون للدعوة إليها، والقائمون قولاً وفعلاً بالتبليغ لها، والمفترض طاعتهم من عند الله، ولا معنى لافتراض طاعة من لا يؤمن وقوع المعصية منه، تعالى الله عن ذلك.

وهكذا يحمل على هذا الباب ما حكي عن بعضهم ﷺ من الاعتراف بالظلم ونحوه كقول ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup> إذ كما يجوز عدّهم بعض الأعمال المباحة الصادرة عنهم ذنباً لأنفسهم وطلب المغفرة من الله سبحانه، كذلك يجوز عدّه ظمناً من أنفسهم لأن كل ذنب ظلم.

وقد مرّ أن هنالك محملاً آخر وهو أن يكون المراد بالظلم هو الظلم على النفس كما في قول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وإياك أن تتوهم أن معنى قولنا في الآية: إن لها محملاً كذا ومحملاً كذا هو تسليم أن ذلك من بخلاف ظاهر الكلام ثم الاجتهاد في اختلاق معنى يحمل عليه الكلام، وتطبق عليه الآيات القرآنية تحفظاً على الآراء المذهبية، واضطراراً من قبل التعصب.

فقد بينّا أن ظاهر الكلام لا يقتصر في تشخيصه على الفهم العامي المتعلق بنفس الجملة المبحوث عنها بل للقرائن المقامية والكلامية المتصلة والمنفصلة - كآية المتعرضة لمعنى آية أخرى - تأثير قاطع في الظواهر، وخاصة في الكلام الإلهي الذي يُفسّر بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ويصدق بعضه بعضاً.

والغفلة عن هذه النكتة هي التي أشاعت بين عدة من المفسرين وأهل الكلام إبداع التأويل بمعنى صرف الكلام إلى ما يخالف ظاهره، وارتكابه

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٧.

(٣) سورة الأعراف: ٢٣.

في الآيات المخالفة لمذهبهم الخاص على زعمهم؛ فتراهم يقطعون القرآن قطعاً ثم يحملون كل قطعة منها على ما يفهمه العامي السوقي من كلام سوقي مثله فإذا سمعوه تعالى يقول: ﴿فَلَنْ أُنَاقِدَ عَنْهُ﴾ حملوه على أنه عليه السلام - وحاشاه - زعم أو أيقن أن الله سبحانه يعجز عن أخذه مع أن ما في الآية التالية: ﴿وَكَذَلِكَ يُشِى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعده من المؤمنين، ولا إيمان لمن شك في قدرة الله فضلاً عن أن يرجح أو يقطع بعجزه.

وإذا سمعوه تعالى يقول: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ تفهموا منه أنه عليه السلام أذنب فغفر الله له كما يذنب الواحد منا بمخالفة أمر أو نهى مولوي من الله تتعقد بهما مسألة فرعية فقهاء.

ولم يهدهم التدبر حتى بمقدار أن يرجعوا إلى سابقة الآية: ﴿إِنَّا فَتَقْنَا لَكَ فَتَقًا مُبِينًا﴾ حتى ينجلي لهم أن هذا الذنب والمغفرة المتعلقة به لو كانا كالذنوب التي لنا والمغفرة التي تتعلق بها لم يكن وجه لتعليق المغفرة على فتح مكة لتعليق الغاية على ذي الغاية، وكذا لم يكن وجه لعطف ما عطف عليه أعني قوله: ﴿وَبَيْنَهُ يَمَازُكُ وَبَيْنَهُ يَمَازُكُ مُسْتَقِيمًا﴾ وَنَهَرَهُ اللَّهُ نَهْرًا عَزِيزًا<sup>(١)</sup>.

منه عليه السلام

وكذا إذا سمعوا سائر الآيات التي تشمل على عشرات الأنبياء بزعمهم كالتي وردت في قصص آدم ونوح وإبراهيم ولوط ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وأيوب ومحمد صلى الله عليه وعليهم بادروا إلى الطعن في ساحة نزاهتهم، ولم ينقبضوا عن إساءة الأدب إليهم وهم أنفسهم أولى بما رموا ولا شين كسوء الأدب.

فساقهم سوء الحظ ورداءة النظر إلى أن أبدلوا ربهم رب العالمين برب تنعته التوراة والأنجيل المحرفة قوة غيبية متجسدة تدير رضى الوجود كما يدير جبار من جبابرة الإنسان مملكته لا هم له إلا إشباع طاغية شهوته وغضبه فجعلوا مقام ربهم ثم سهوا عن مقام النبوة وعفوا مدارجهم العالية الشريفة الروحية ومقاماتهم السامية الحقيقية فعادت بذلك هاتيك النفوس

(١) سورة الفتح: ٣.

الطاهرة المقدسة تماثل النفوس الرديئة الخسيسة التي ليس لها من شرف الإنسانية إلاّ التسمي باسمها؛ تهلك من<sup>(١)</sup> هذا نفسه، وتخون من ذاك عرضه، وتطمع من ذلك في ماله مع أنهم على ما لهم من الجهل لا يرضون بهذه الفضائح فيمن يتقلد أمراً من أمور دنياهم أو يتصدى يوماً للقيام بمصلحة بيتهم وأهلهم فكيف يرضون بنسبة هذه الفضائح إلى الله سبحانه وهو العليم الحكيم الذي أرسل رسله إلى عباده لئلا يكون لهم حجة بعدهم وليت شعري أي حجة تقوم على كافر أو فاسق إذا جاز للرسول أن يكفر أو يفجر أو يدعو إلى الشرك والوثنية ثم يتبرأ منه وينسبه إلى الشيطان؟

وإذا ذكروا ببعض ما لأنبياء الله ﷺ من المعصية الإلهية، والمقامات الموهوبة والمواقف الروحية عدوا ذلك شركاً بالله، وغلوا في حق عباد الله، وأخذوا في تلاوة قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقد أصابوا في ردهم بوجه فإن ما يتصورونه من الرب عز اسمه وينعتونه به من النعمت في ذاته وفعله دون ما يذكرون به من مقامات الأنبياء عليهم السلام وأخفض منها منزلة وقدوا، وهذا كله من المصائب التي لقيها الإسلام وأهله مما دسسته أهل الكتاب وخاصة اليهود في الروايات وعملته أيديهم، وحركوا بها الرخى على غير ما يحوزون واعتقدوا في الله سبحانه الذي ليس كمثله شيء أنه مثل الإنسان المتجبر الذي يرى لنفسه أنه حر غير مسؤول فيما يفعل وهم المسؤولون، وأن ترتب المسببات على أسبابها واستيلاد المقدمات نتائجها واقتضاء الخصائص الوجودية صورية أو معنوية لآثارها كل ذلك جزافي لا لرابطة حقيقية.

وأن الله تعالى ختم بمحمد النبوة وأنزل عليه القرآن، وخصّ موسى بالتكليم، وعيسى بالتأييد بالروح لا لخصوصية في نفوسهم الشريفة بل لأنه أراد أن يخصصهم بكذا وبكذا، وأن ضرب موسى بعصاه الحجر فاتفجرت كضرب أحدنا بعصاه الحجر غير أن الله يفجر ذاك ولا يفجر هذا، وأن قول عيسى للموتى: قوموا بإذن الله مثل أن ينادي أحدنا بين المقابر: قوموا بإذن الله إلا أن الله يحيي أولئك ولا يحيي هؤلاء وهكذا.

(١) راجع ما روي في داود وسليمان وإبراهيم ولوط وغيرهم ﷺ.

وليس ذلك كله إلا قياساً لنظام التكوين إلى نظام التشريع الذي لا قوام له إلا الوضع والاصطلاح والتعاهد الذي لا يتجاوز ظرف الاجتماع سعة، ولا يعدو دنيا الإنسان المجتمع.

ولو أنهم تفتنوا قليلاً وتدبروا في أطراف الآيات المتعرضة لأمر الذنب والمعصية بالمعنى المصطلح عليه، وهي مخالفة الأمر والنهي المولويين تنبهوا إلى أن من المغفرة ما هو فوق المغفرة المعروفة.

فإن الله سبحانه يكرر في كلامه أن له عباداً يسميهم بالمخلصين مصونين عن المعصية لا مطمع فيهم للشيطان فلا ذنب - بالمعنى المعروف - لهم ولا حاجة إلى المغفرة المتعلقة بذلك الذنب، وقد نصّ في حق عدة من أنبيائه كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى أنهم مخلصون كقوله في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالَتِهِمْ ذِكْرَىٰ آلِدَارِ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله في يوسف: ﴿إِنَّمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله في موسى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾<sup>(٣)</sup> وقد حكى عنهم سؤال المغفرة كقول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾<sup>(٤)</sup> وقال موسى ﷺ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾<sup>(٥)</sup>، ولو كانت المغفرة لا تتعلق إلا بالذنب بالمعنى المعروف لم يستقم ذلك.

نعم ربما قال القائل: إنهم ﷺ يعدون أنفسهم مذنبين تواضعاً لله سبحانه ولا ذنب لهم، لكن ينبغي لهذا القائل أن يتنبه إلى أنهم ﷺ لم يخطئوا في نظرهم هذا، ولم يجازفوا في قولهم فلشمول المغفرة لهم معنى صحيح والمسألة جدية.

على أن دعاء إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ دعاء لكافة المؤمنين - وفيهم المخلصون - بالمغفرة، وكذا في

- 
- (١) سورة ص: ٤٦.
  - (٢) سورة يوسف: ٢٤.
  - (٣) سورة مريم: ٥١.
  - (٤) سورة إبراهيم: ٤١.
  - (٥) سورة الأعراف: ١٥١.

دعاء نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾<sup>(١)</sup>، شمول بإطلاقه للمخلصين، ولا معنى لطلب المغفرة على من لا ذنب له يحتاج إلى المغفرة.

فهذا كله ينبهنا إلى أن من الذنب المتعلق به المغفرة ما هو غير الذنب بالمعنى المتعارف وكذا من المغفرة ما هي غير المغفرة بمعناها المتعارف، وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾<sup>(٢)</sup> ولعل هذا هو السبب فيما نشاهد أنه تعالى في موارد من كلامه إذا ذكر الرحمة أو الرحمة الأخروية التي هي الجنة قدم عليه ذكر المغفرة كقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾<sup>(٤)</sup> وقوله حكاية عن آدم وزوجته: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾<sup>(٥)</sup>، وقوله عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾<sup>(٦)</sup>.

فتحصل من البيان السابق: أن للذنب مراتب مختلفة مرتبة طويلاً كما أن للمغفرة مراتب بحداثتها، تتعلق كل مرتبة من المغفرة بما يحاذيها من الذنب، وليس من اللازم أن يكون كل ذنب وخطيئة متعلقاً بأمر أو نهى مولوي فتعرفه وتبينه الأفهام العامة الساذجة، ولا أن يكون كل مغفرة متعلقة بهذا النوع من الذنب.

٤ - نتيجة البحث: فالذي تبين لنا من مراتب الذنب والمغفرة بحسب البحث السابق العام مراتب أربع:

أولاًها: الذنب المتعلق بالأمر والنهي المولويين وهو المخالفة لحكم شرعي فرعي أو أصلي وإن عممت التعبير قلت: مخالفة مادة من المواد القانونية دينية كانت أو غير دينية، وتتعلق به مغفرة تحاذيه مرتبة.

(١) سورة نوح: ٢٨.

(٢) سورة الشعراء: ٨٢.

(٣) سورة المؤمنون: ١١٨.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٥) سورة الأعراف: ٢٣.

(٦) سورة هود: ٤٧.

والثانية: الذنب المتعلق بالحكم العقلي الخلقي والمغفرة المتعلقة به.

والثالثة: الذنب المتعلق بالحكم الأدبي ممن ظرف حياته ظرف الأدب والمغفرة المتعلقة به، وهذان القسمان ربما لم يعدا بحسب الفهم العامي من الذنوب والمغفرات، وربما حسيبوهما منها مجازاً، وليس من المجاز في شيء لما عرفت من ترتب الآثار الحقيقية عليهما.

والرابعة: الذنب الذي يحكم به ذوق الحب والمغفرة المتعلقة به، وفي ظرف البغض أيضاً ما يشبههما، وهذا النوع لا يعده الفهم العامي من الأقسام، وقد أخطأوا في ذلك لا لجور منهم في الحكم والقضاء بل لقصور فهمهم عن تعقله وتبين معناه.

وربما قال القائل منهم: إنه من أوهام العشاق والمبرسمين أو تخيل شعري لا ينكىء على حقيقة عقلية، وقد غفل عن أن هذه التصورات على أنها أوهام وتخيلات في طريق الحياة الاجتماعية هي بعينها تعود حقائق - وأي حقائق - في طريق العبودية عن حب إلهي يذيب القلب ويوله اللب، ولا يدع للإنسان شعوراً يشعر بغير ربه، ولا إرادة يريد بها إلا ما يريده.

وحينئذ يلوح له أن التفاته يسيرة منه إلى نفسه أو إلى مشتتها من شيء ذنب عظيم وحجاب غليظ لا ترفعه إلا المغفرة الإلهية، وقد عذ الله سبحانه الذنب حجاً للقلب عن التوجه التام إلى ربه إذ قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ \* كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمُعْجُزُونَ<sup>(١)</sup>.

فهذا ما يعطيه البحث الجدي الذي لا يلعب فيه بالحقائق، وربما أمكن أن يلوح لأولياء الله السالكين في عبوديتهم سبيل حبه تعالى دقائق من الذنب ولطائف من المغفرة لا تكاد تناله أيدي الأبحاث الكلية العامة.

٥ - هل المؤاخذه أو المغفرة تستلزم ذنباً؟: الباحث في ديدن العقلاء من أهل الاجتماع يعثر على أنهم يبنون المؤاخذه والعقاب على التكليف الاختياري، ومن شرائط صحته عندهم العقل، وهناك شرائط آخر تختلف

(١) سورة المطففين: ١٥.



في أصلها وفي تحديد ماهياتها وحدودها المجتمعات، ولسنا ههنا بصدد البحث عنها.

وإنما كلامنا في العقل الذي هو قوة التمييز بين المحسن والقبح والنافع والضار والخير والشر بحسب المتوسط من حال الناس في مجتمعهم، فإن الناس من حيث النظر الاجتماعي يرون أن في الإنسان مبدأً فعلاً هذا شأنه وإن كان البحث العلمي ربما أدّى إلى أنه ليس قوة من القوى الطبيعية المودوعة في الإنسان كالتخيلة والحافظة، وإنما هي ملكة حاصلة من توافق عدة من القوى في الفعل كالعدالة.

فالمجتمعات على اختلافها ترى أن التكليف منوط بهذا المسمى عقلاً فيتفرع الثواب والعقاب المتفرعين على التكليف عليه لا محالة فيثاب العاقل بطاعته ويعاقب بجرمه.

وأما غير العاقل كالصبي والمجنون والسفيه وكل مستضعف غيرهم فلا ثواب ولا عقاب على ما يأنوكر به من طاعة أو معصية بحقيقة معنى الثواب والعقاب، وإن كانوا ربما يشاهدون قبال طاعتهم ثواباً تشويقياً أو يؤخذون ويساسون قبال جرمهم بما يحمل عقاباً تأديبياً، وهذا شائع دائر في المجتمعات حتى المجتمع الإسلامي.

وهؤلاء بالنظر إلى السعادة والشقاوة المكتسبتين بامتثال التكاليف ومخالفتها في الحياة الدنيا، لا سعداء ولا أشقياء إذ لا تكليف لهم فلا ثواب حتى يسعدوا به ولا عقاب حتى يشقوا به، وإن كانوا ربما يشوقون بخير أو يؤدّبون بشر.

وأما بالنسبة إلى الحياة الآخرة التي يشتها الدين الإلهي ثم يقسم الناس إلى قسمين لا ثالث لهما: السعيد والشقي أو المثاب والمعاقب فالذي يذكره القرآن الشريف في ذلك أمر إجمالي لا يتبين تفصيله إذ لا طريق عقلاً إلى تشخيص تفاصيل أحوالهم بعد الدنيا، قال تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّا يَعْدِبُهُمْ وَإِنَّا يَوْمٌ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَفَلْنَاهُمْ أَهْلَكْنَا أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَلِّينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ

(١) سورة التوبة: ١٠٦.

تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ ذَمِيمَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا \* إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ جَبَلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا \* فَأُولَئِكَ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا<sup>(١)</sup>

والآيات - كما ترى - تشتمل على العفو عنهم والتوبة عليهم ولا مغفرة في مورد لا ذنب هناك، وعلى عذابهم ولا عذاب على من لا تكليف له، غير أنك عرفت أن الذنب وكذا المغفرة والعقاب والثواب ذوات مراتب مختلفة: منها ما يتعلق بمخالفة التكليف المولوي أو العقلي، ومنها ما يتعلق بالهيئات النفسانية الرديئة وأدران القلب التي تحجب الإنسان عن ربه، وهؤلاء وإن كانوا في معزل من تعلق التكليف المتوقف على العقل لكنهم ليسوا بمصونين من ألوان النفوس وأستار القلوب التي يحتاج النعم بنعيم القرب، والحضور في ساحة القدس إلى إزالتها وعفوها والستر عليها ومغفرتها.

ولعل هذا هو المراد مما ورد في بعض الروايات: «إن الله سبحانه يحشرهم ثم يخلق ناراً ويأمرهم بدخولها فمن دخلها دخل الجنة ومن أبى أن يدخلها دخل النار».

ومن استعمال العفو والمغفرة في غير مورد الذنب في كلامه تعالى ما تكرر وقوعه في مورد رفع الحكم بقوله تعالى: «فمن اضطر في مخصمة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم»<sup>(٢)</sup>، ونظيره ما في سورة الأنعام، وقوله تعالى في رفع الوضوء عن فاقد الماء: «وإن كنتم مرضى أو على سفر - إلى أن قال - فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله عفو غفور»<sup>(٣)</sup>، وقوله في حد المفسدين في الأرض: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبُ أَنْتَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»<sup>(٤)</sup>، وقوله في رفع حكم

(١) سورة النساء: ٩٩.

(٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) سورة النساء: ٤٣.

(٤) سورة المائدة: ٣٤.

الجهاد عن المعذورين: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>، إلى غير ذلك.

وقال تعالى في البلاء والمصائب التي تصيب الناس: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَقُولُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وينكشف بذلك أن صفة العفو والمغفرة منه تعالى كصفتي الرحمة والهداية تتعلق بالأمور التكوينية والتشريعية جميعاً فهو تعالى يعفو عن الذنوب والمعاصي فيمحوها من صحيفة الأعمال، ويعفو عن الحكم الذي له مقتضى يقتضي وضعه فيمحوه فلا بشرعه، ويعفو عن البلاء والمصائب وأسبابها قائمة فيمحوها فلا تصيب الإنسان.

٦ - رابطة العمل والجزاء: قد عرفنا فيما تقدم من البحث أن الأوامر والنواهي العقلانية - القوانين الدائرة بينهم - تستعقب آثاراً جميلة حسنة على امتثالها وهي الثواب، وآثاراً سيئة غلي مخالفتها والنمرد منها تسمى عقاباً، وأن ذلك كالحيلة يحتالون بها إلى العمل بها، فجعلهم الجزاء الحسن للامتثال إنما هو ليكون مشوقاً للعاملين والجزاء السيء على المخالفة ليكون العامل على خوف وحذر من العقوبة.

ومن هنا يظهر أن الرابطة بين العمل والجزاء رابطة جمالية وضعية من المجتمع أو من ولي الأمر، دعاهم إلى هذا العمل حاجتهم الشديدة إلى العمل ليستفيدوا منه ويرفعوا به الحاجة ويسدوا به الخلة، ولذلك تراهم إذا استغنوا وارتفعت حاجتهم إلى العمل ساهلوا في الوفاء على ما تعهدوا به من ثواب وعقاب.

ولذلك أيضاً ترى الجزاء يختلف كثرة وقلة والأجر يتفاوت شدة وضعفاً باختلاف الحاجة إلى العمل فكلما زادت الحاجة زاد الأجر وكلما نقصت نقص؛ فالأمر والمأمور والمكلف والمكلف بمنزلة البائع والمشتري كل منهما يعطي شيئاً ويأخذ شيئاً.

(١) سورة التوبة: ٩١.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

والأجر والثواب بمنزلة الثمن، والعقاب بمنزلة الدرك على من أتلف شيئاً فضمن قيمته واستقرت في ذمته.

وبالجملة فهو أمر وضعي اعتباري نظير سائر العناوين والأحكام والموازن الاجتماعية التي يدور عليها رحي الاجتماع الإنساني كالرئاسة والمرؤوسية والأمر والنهي والطاعة والمعصية والوجوب والحرمة والملك والمال والبيع والشراء وغير ذلك، وإنما الحقائق هي الموجودات الخارجية والحوادث المكتنفة بها التي لا تختلف حالها بغنى وفقر وعز وذل ومدح وذم كالأرض وما يخرج منها والموت والحياة والصحة والمرض والجوع والشبع والنظماً والري.

فهذا ما عند العقلاء من أهل الاجتماع، والله سبحانه جازانا في كلامه مجارة بعضنا بعضاً فقلب سعادتنا التي يهدينا إليها بدينه في قالب السنن الاجتماعية فأمر ونهى ورغب وحذر، وبشر وأنذر، ووعد بالثواب وأوعد بالعقاب فصرنا نتلقى الدين على أهمل الوجوه التي نتلقى بها السنن والقوانين الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ يَوْمَ الْآخِرَةِ﴾ (١).

ولم يهمل سبحانه أمر تعليم النفوس المستعدة لإدراك الحقائق فأشار في آيات من كلامه إلى أن وراء هذه المعارف الدينية التي تشتمل عليها ظواهر الكتاب والسنة أمراً هو أعظم، وسراً هو أنفس وأبهى فقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوةُ﴾ (٢).

فعد الحياة الدنيا لعباً لا بنية له إلا الخيال، ولا شأن له إلا أن يشغل الإنسان عما يهمه، وهي الدار الآخرة وسعادة الإنسان الدائمة التي لها حقيقة الحياة، والمراد بالحياة الدنيا إن كان هو عين ما نسميه حياة دون ما يلحق بها من الشؤون الحيوية من مال وجاه وملك وعزة وكرامة ونحوها فكونها لعباً ولهواً مع ما نراها من الحقائق يستلزم كون الشؤون الحيوية لعباً ولهواً بطريق أولى، وإن كان المراد الحياة الدنيوية بجميع لواحقها فالأمر أوضح.

(١) سورة النور: ٢١.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

فهذه السنن الاجتماعية والمقاصد التي يطلب بها من عز وجاه ومال وغيرها، ثم الذي يشتمل عليه التعليم الديني من مواد ومقاصد هدايا الله سبحانه إليها بالفطرة ثم بالرسالة مثلها كمثل اللعب الذي يضعه الولي المربي العاقل للطفل الصغير الذي لا يميز صلاحه من فساده وخيره من شره ثم يجاريه فيه ليروض بدنه ويروح ذهنه ويهيئه لنظام العمل وابتغاء الفوز به، فالذي يقع من العمل اللعبي هو من الصبي لعب جميل يهديه إلى حد العمل، ومن الولي حكمة وعمل جدي ليس من اللعب في شيء.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِبَتَ \* مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>، والآية قريبة المضمون من الآية السابقة.

ثم شرح تعالى كيفية تأدية هذه التربية الصورية إلى مقاصدها المعنوية في مثل عام ضربه للناس فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالَتْ أُودِيَةً يَقْدِرُهَا فَأَحْتَمَلُ السَّيْلُ زَيْدًا رَأِيًا وَمَا يُوَفُّوهُ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلِيلٍ أَوْ مَتَّعَ زَيْدٌ وَشَلَّ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَأَذْهَبَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup>.

فظهر من بيانه تعالى أن بين العمل والجزاء رابطة حقيقية وراء الرابطة الوضعية الاعتبارية التي بينهما عند أهل الاجتماع ويجري عليها ظاهر تعليمه تعالى.

٧ - والعمل يؤدي الرابطة إلى النفس: ثم بين تعالى أن العمل يؤدي هذه الرابطة إلى النفس من جهة الهيئة النفسانية التي تحصل لها من العمل والحالة التي تؤديها إليها فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاجِدُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوا بِعَاسِكُمْ يَوْمَ اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup>، وفي هذا المعنى آيات أخر كثيرة.

(١) سورة الدخان: ٣٩.

(٢) سورة الرعد: ١٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٤.

ويتبين بها أن جميع الآثار المترتبة على الأعمال من ثواب أو عقاب إنما تترتب بالحقيقة على ما تكسبه النفوس من طريق الأعمال، وأن ليس للأعمال إلا الوساطة.

ثم بين تعالى أن الذي سيواجههم من الجزاء على الأعمال إنما هو نفس الأعمال بحسب الحقيقة لا كما يضع الإنسان في مجتمعه عملاً ثم يردفه بجزاء بل العمل محفوظ عند الله سبحانه بالتحفاظ النفس العاملة ثم يظهره الله عليها يوم تبلى السرائر قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿لَا تُعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، ودلالة الآيات ظاهرة، وتلحق بها في ذلك آيات أخر كثيرة.

ومن أحسنها دلالة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾<sup>(٣)</sup>، فإن هذا إشارة إلى مقام الجزاء الحاضر، وقد عده غافلاً عنه في الدنيا بقرينة قوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ ولا معنى للغفلة إلا عن أمر موجود، ثم ذكر كشف غطاءه عنه، ولا وجه للغطاء إلا أن يكون هناك مغطى عليه، فقد كان ما يلقاه ويصبره من الجزاء يوم القيامة حاضراً موجوداً في الدنيا غير أنه لم يكشف عنه في الدنيا.

وهذه الآيات تفسر الآيات الأخر الظاهرة في المجازاة وبينونة العمل والجزاء لكون آيات المجازاة ناظرة إلى مرحلة الرابطة الاجتماعية الوضعية، وهذه الآية ناظرة إلى مرحلة الرابطة الحقيقية كما بيّناه<sup>(٤)</sup>.

والله الهادي  
(تم والحمد لله)

(١) سورة آل عمران: ٣٠.

(٢) سورة التحريم: ٧.

(٣) سورة ق: ٢٢.

(٤) انظر الميزان المجلد ٦ ص ٣٦٠.

## فهرس الكتاب

٥	..... المقدمة
٧	..... الأخلاق في القرآن الكريم
١٤	..... علم الأخلاق
٢٠	..... أبحاث حول التقوى الديني ودرجاته
٣٢	..... التوبة في القرآن
٤١	..... التوبة في نظر الروايات
٤٤	..... الكبائر والصغائر من نظرة تحليلية
٥٣	..... روايات أهل البيت في الكبائر والصغائر
٥٧	..... في الإيمان وازدياده
٦١	..... في معنى تأثير الإيمان
٦٣	..... النفاق في صدر الإسلام
٦٧	..... نظرة فلسفية إلى الحب الإلهي
٧٣	..... الذكر الإلهي في القرآن الكريم
٧٥	..... الذكر في نظر الروايات
٧٧	..... في معنى السكينة
٨٠	..... المجازاة والعفو
١٠٢	..... الفهرس